فصول في إصلاح النفس والمجتمع

(من صيد الخاطر)

للإمام ابن الجوزي

بقلم
صالح أحمد الشامي



الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



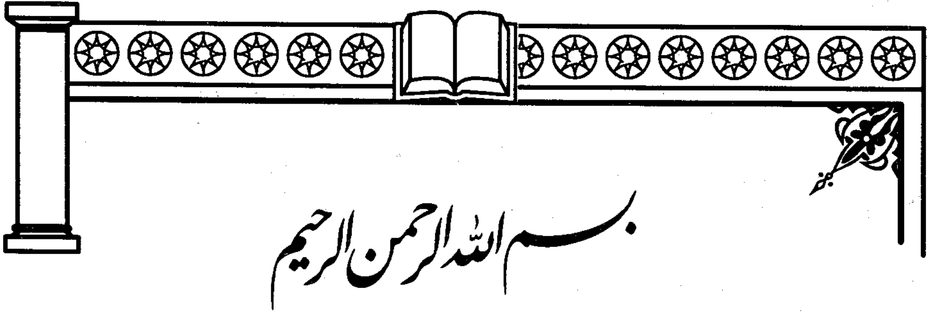
بيروت : تلفاكس 664499 (9611 +) ـ ص . ب : 6380 / 14
الرياض : هاتف 4162527 (9661 +) ـ ص . ب : 250641 الرمز 11391
دمشق : هاتف 2230914 (96311 +) ـ ص . ب : 7603
E.mail : warrak@zajil.net
www.daralwarrak.com

فصول

في إصلاح النفس والمجتمع

(من صيد الخاطر)

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـد:

يعدّ كتاب «صيد الخاطر» الذي دوَّنه الإمام ابن الجوزي، خلاصة تجربة هذا الرجل الكبير.

ومن خلاله تظهر شخصيته كعالِم نفس بارع، وعالِم اجتماع متميز.

إن تأملاته التي دونها فيه تكشف عن نظرته الفاحصة، التي تشخّص الحالة - محلَّ البحث - تشخيصاً دقيقاً. ومن ثمَّ يكون التقرير الذي يوجه إلى ما ينبغي فعله.

ولذا فهي - في معظمها - بين وصف للعلل والأمراض وبيان أسبابها، حتى تسهل الوقاية منها، وبين وصف للدواء، إذا كان المرض قد تمكن من الجسم، إنه بين التحذير.. ووصف العلاج.. وبيان الحِمْيَة...

ثم إنه يتناول جميع جوانب الحياة الظاهرة، مما تضبطه الشريعة، والباطنة، مما يضبطه قانون الأخلاق ومحاسبة النفس الذي جاء فيه قوله ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب.

إنه خلاصة تجربة هذا الرجل العالم، الذي فقه الواقع الذي يعيشه،

واستطاع بهذا الفقه أن يكون مؤثراً في مجتمعه، فَيُسْلِمَ على يده المئات، ويتوب بين يديه الآلاف..

ولم يكن هذا التأثير قاصراً على جيله الذي عاش فيه، بل استمر من بعده، فاستفاد الناس من تراثه الذي زاد على خمسين ومائتي كتاب.

وابن الجوزي في كتابه هذا يمثل العالم في مختبره، الذي يدون كل يوم مشاهداته وتجاربه وما يتوصل إليه من أبحاث يوماً بعد يوم.

فهو كتاب لم يعكف عليه مؤلفه.. وإنما هي مشاهدات يدونها.. ولهذا تكررت بعض الموضوعات لديه..

إنها خواطر في الإصلاح.. ما أحوجنا إليها في هذا الزمن.

والكتاب ـ بشكله الذي وضعه المؤلف ـ يشد القارىء إليه بتنوع موضوعاته، ولكنه يبقى في إطار المعالجة الجزئية للموضوع ـ محلِّ البحث ـ الذي يناقشه المؤلف بالخاطر الذي عَنَّ له.

وبما أنه يتوقف عند الموضوع الواحد أكثر من مرة، بل مرات في بعض الأحيان، وفي كل مرة قد تكون المعالجة من زاوية غير التي سبقت، فقد رأيت أن ضم الخواطر ذات الفكرة الواحدة إلى بعضها، قد يشكل منها موضوعاً مكتمل العناصر، الأمر الذي يضع بين أيدينا بحوثاً تلبي الحاجة..

وقد وجدت أن فكرة «الإصلاح» تشكل العمود الفقري في الكتاب. وهي التي استأثرت باهتمامه، فرأيت أن جمع المادة التي تتعلق بها سيكون أمراً مفيداً.

فجمعت من «الخواطر» كل ما يتعلق بالفكرة المذكورة، فوجد أن كل طائفة منها تنتمي إلى شعبة من شعبه، ففرزتها وفقاً لذلك، فكانت انتماءاتها إلى:

ـ إصلاح النفس.

ـ إصلاح الأسرة.

- إصلاح المجتمع.

- محاولة المؤلف في إصلاح نفسه.

- إصلاح العلماء.

ووجدت - بعد ذلك - أن المادة المتجمعة في الشعبة الواحدة، كل طائفة منها تعالج فكرة واحدة، فضممت هذه الخواطر إلى بعضها، ووضعتها تحت العنوان الملائم لها، ثم رتبت هذه العناوين بحسب أولويتها في البحث.

ولما كان موضوع «إصلاح العلماء» قد استأثر باهتمام المؤلف لِما له من أثر في عملية الإصلاح العام، فقد كانت المادة المتجمعة فيه كبيرة، مما استدعى تقسيمها إلى فصول، وتحت كل فصل عناوين فرعية ترتبط به، وقد رتبت أيضاً كما رتب غيرها.

ونتيجة لذلك، فقد تم تقسيم البحث إلى بابين:

الأول: وفيه ما يتعلق بإصلاح العلماء، وهو مقسم إلى فصول، وقد قدمته لأهميته، واعتناء المؤلف به.

الثاني: وفيه بقية البحث، التي جاء عرضها في أربعة فصول:

١ - حديث ابن الجوزي عن نفسه.

٢ - إصلاح النفس.

٣ - إصلاح الأسرة.

٤ - إصلاح المجتمع.

وقد راعيت في عملي الأمور التالية:

- الحفاظ على نص المؤلف.

- ذكرت في نهاية كل موضوع مرجعه من الكتاب الأصل «صيد الخاطر» محيلاً على رقم الفصل بسبب تعدد الطبعات.

ـ قمت بالتقديم للباب الأول وفصول الباب الثاني، لتحليل الأفكار وإلقاء الضوء عليها وبيان دور المؤلف في إثرائها.

وهكذا ـ بعون الله تعالى ـ تم جمع هذا الموضوع من الخواطر التي انتشرت على صفحات «صيد الخاطر» في أماكن متقاربة تارة، ومتباعدة تارة أخرى، لتكون أمام القارىء في مكان واحد يكمل بعضها بعضاً.

هذا، والخيرَ أردت، وأرجو أن أكون ممن أصاب فيما اجتهد فيه، والله أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعل أعمالنا خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

١٨ ذو القعدة ١٤٢٤هـ

١٠/١/ ٢٠٠٤م.

وكتبه:

صالح أحمد الشامي



ترجمة الإمام ابن الجوزي

هو أبو الفرج، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري.

الفقيه الحنبلي، الواعظ المفسر، الحافظ، الأديب، الملقب بـ «جمال الدين».

اشتهر بابن الجوزي نسبة إلى أحد أجداده، الذي عرف بالجوزي، بجوزة كانت في داره، لم يكن بواسط جوزة غيرها.

ولد ببغداد حوالي سنة (٥١١هـ)، وتوفي والده سنة (٥١٤هـ).

وفي ظلال حلقات العلم نشأ وترعرع، فحفظ القرآن وهو صغير، وكان أول سماعاته سنة (٥١٦هـ).

كان واسع الاطلاع، عظيم العلم، له معرفة وسبق في كل باب من أبواب العلم، وفي كل فرع من فروع المعرفة.

كتب وصنف في كثير من فنون العلم حتى وصل عدد مؤلفاته إلى ما يزيد عن خمسين ومائتي كتاب، كما ذكر ذلك في كتابه «صيد الخاطر».

كان واعظاً مؤثراً، وينقل لنا صورة من مجالس وعظة فيقول:

«إنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا. . وربما

اتفق خمسون ومائة، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة»[1].

كما يتحدث عن آثار وعظه في الناس فيقول:

«ولقد تاب على يدي في مجلس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.. وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل».

على أنه حين يذكر ذلك لا يذكره من باب الإعجاب بالنفس، وإنما من باب التحدث بنعم الله تعالى، وهو لا يخفي خوفه من ذلك فيقول:

«وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي، ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما فيهم إلا من رق قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك إذا نجوا وهلكت..».

وقد كان حريصاً على وقته، يضن به أن يذهب بغير فائدة، وقد كثرت مواعظه في هذا الصدد، فما زال ينصح الناس بالحرص على أوقاتهم، وتصريفها فيما يعود عليهم بالنفع في دنياهم وآخرتهم.

وكان حريصاً على أن يتجنب الحكام، فإنه لا ينبغي لعالم أن يكون في حاشية حاكم، لأن العالم كالمصباح المنير لا بد أن يحتفظ لنفسه بدور التوجيه.

قال سبطه أبو المظفر: كان زاهداً في الدنيا، متقللاً منها، وما مازح أحداً قط، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلها، وما زال على ذلك الأسلوب إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن كثير: تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه، ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته، وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة، بما يشاهده من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة، سريعة الفهم

(١) صيد الخاطر، ص ٤٧.

والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة.

وقال الذهبي: كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهة، ويسهب ويعجب، ويطرب ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله.

وقال ابن خلكان: كان علاَّمة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ صنف في فنون كثيرة.

قال سبطه بشأن وفاته: جلس جدي يوم السبت سابع عشر شهر رمضان ـ يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة ـ تحت تربة أم الخليفة، المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، ثم نزل عن المنبر، فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره، وعمره نحو التسعين، وغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد، وغلقت الأسواق، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان في شهر تموز، فأفطر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام، وما وصل حفرته إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول: الله أكبر، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل، رحمه الله، وقد أوصى أن يكتب على قبره:

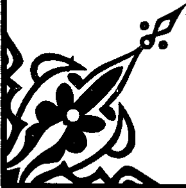
يا كثير الصفح عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

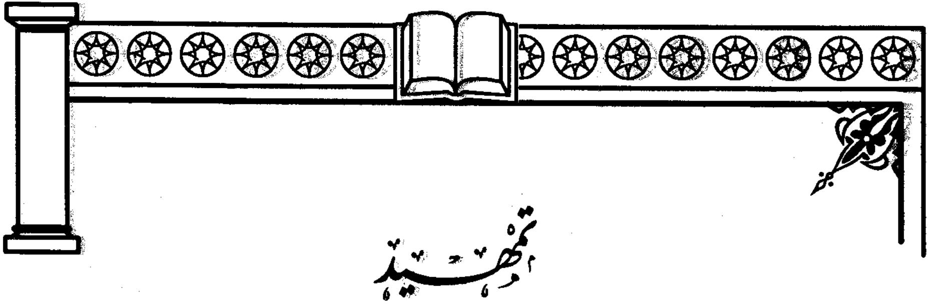
رحم الله ابن الجوزي جزاء ما قدم للإسلام.. فقد كان مجدد عصره..

* * *

البَابُ الأَوَّلُ

فصول
في تذكير العلماء ونصحهم





تمهيد

يتبين من مجموع هذه الخواطر أن قضية العلم المتمثلة في شخصية العالم كانت تشغل بال ابن الجوزي، فالعلماء ورثة الأنبياء، وبصلاحهم يكون صلاح المجتمع، ذلك أنهم يمثلون قادة الأمة الذين يملكون دفة التوجيه فيها.

ولذلك وجدناه يكثر من توجيههم ونصحهم، وبيان الأخطاء التي يقع بها بعضهم.

١ ـ فهو يرى أنه ليس في الوجود أشرف من العلم، وليس في الدنيا أطيب عيشاً من العالم.

وإذا كان الأمر كذلك «فمدار الأمر في العلم على العقل، وثمرة العقل فهم الخطاب، ولا يكون ذلك إلا بالاعتماد على الدليل».

وإذا كان الدليل هو المحور، فلا تقلد في دينك من قل علمه.

فمكانة العالم في المجتمع تأتي في مكان الذروة، تبعاً لمكانة العلم.

٢ ـ ويقدم ابن الجوزي تجاربه لطلاب العلم في كيفية تحصيل العلم، ويقدم نصائحه بنقاط مفصلة، منها:

ـ دوام الدراسة، فالدوام أصل عظيم في هذا الأمر.

ـ ويرشد الطلاب إلى الأوقات المناسبة للحفظ..

- ويرتب العلوم التي ينبغي أن يبدأ بها، فالقرآن الكريم أولاً، ثم الفقه..

- التشاغل بالمهم من كل علم..

٣ - وهو لا يقبل من العالم العكوف على فن واحد من العلم، وترك العلوم الأخرى بل لا بد أن يكون لديه طرف من كل علم، ويتوسع في مادة الاختصاص.

فلكل علم تعلق بغيره من العلوم، والفقيه يحتاج إلى جميع العلوم..

واقتناء الكتب أمر ضروري، ولا يخلو كتاب من فائدة..

٤ - وعلى العالم أن يبذل علمه للناس، إما بالدرس أو بالتأليف.

ويرى أن التأليف - لمن أحكم وسائله - أكثر نفعاً للأمة، للاستمرار الإفادة منه بعد موت صاحبه.

والتأليف - كما يراه ابن الجوزي - هو: جمع ما تفرق، أو ترتيب ما شتت، أو شرح ما أهمل، وهذا هو الصنيف المفيد، وليس كل من صنف صنف.

٥ - وأنفع العلماء للأمة، هو العامل منهم بعلمه، لأنه يفيدهم بلسان قاله، ولسان حاله، والدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول. والعمل بالعلم هو الأصل الأكبر.

وقد صنف ابن الجوزي العلماء والزهاد العاملين صنفين:

ففي صنف العلماء: مالك، وسفيان، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد.

وفي صنف العباد: مالك بن دينار، ورابعة، ومعروف الكرخي، وبشر بن الحارث.

وكان كل فريق يحترم الفريق الآخر ويستفيد منه.

فمالك بن دينار يأتي إلى الحسن البصري يتعلم منه، ويقول: الحسن أستاذنا.

وأحمد بن حنبل يقول: وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟.

إنه التلازم بين العلم والعمل، وبين العلماء والعباد.

٦ - وينبغي للعالم أن يكون في غنى عن الناس، ولا تكون مكانته محفوظة في المجتمع إلا إذا كان كذلك.

ولذلك على المتعلم أن يجتهد في الكسب وطلب الغني، وإن ضاع بذلك عليه كثير من طلب العلم، فإنه يصون بذلك عرضه.

ويقول في ذلك: إن التفاتك إلى نوع كسب تستغني به عن الأراذل، أفضل من التزايد في علمك.

٧ - ويرى الإمام ابن الجوزي أن العلماء فريقان: علماء الدنيا، وعلماء الآخرة.

ويعقد مقارنة بين الفريقين، ويحذر من الفريق الأول. لأنهم يخالطون السلاطين ويجاملونهم ولا ينكرون عليهم.. وذلك في سبيل نيل شيء، من دنياهم، ويرى أنه من المستبعد أن يسلم الدين مع مخالطتهم..

ثم يتحدث عن الآثار المترتبة على ذلك وأولها أن يحرم العالم الانتفاع بعلمه.

٨ - والعالم هو القدوة التي يراقبها الناس، ولذا فإن ابن الجوزي يتحدث طويلاً عن الآداب التي ينبغي أن يراعيها العالم، ويتخلق بها.

وفي مقدمتها التواضع وعدم التطلع إلى التصدر في مجالس الناس.

وعليه أن تكون مخالطته للناس بقدر، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم.. وبهذا يصون علمه.

وينصحه بالخشية من الله تعالى، فإذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً، وإنما يرى نعمة الله عليه بأن وفقه للعمل. ومثل هذا لا يتعالى على الناس ولا يتكبر عليهم.

والمطلوب من العالم أن يكون في حقيقة العلم لا في صورته، وهذه الحقيقة هي التي تورث الخشية والخوف.

وإذا كان العالم في حقيقة العلم ومقصوده، لم يصعب عليه قول: «لا أدري» عندما تعرض عليه مسألة لا يعلمها.

وكثير من العلماء يأنفون من قول هذه الكلمة.. حتى لا يقال: جهلوا الجواب، وعندها ينكسر جاههم عند الناس، وفي ذلك ما فيه بالنسبة إليهم.

٩ - وآفة «الكبر» داء باطن لدى بعضهم، ويتعجب ممن كان هذا شأنه ويتساءل بماذا رأى نفسه؟ أبالعلم؟ وقد سبقه العلماء، أم بالعبادة؟ وقد سبقه العباد..

ويرى أن هذه الآفة منتشرة على نطاق واسع، فيقول: قلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه!.

و «الغرور» قرين الكبر، حيث يظن العالم أنه بلغ الغاية، ويقتصر على ما يعلمه، ويصبح تعظيمه لنفسه مانعاً من الاستفادة والمذاكرة، وقبول المناقشة والمحاورة. وعندئذ يجانبه الصواب.

١٠ - وينتقد الإمامُ الوعاظَ كثيراً، إما لقلة علمهم، وإما لعدم حكمتهم في انتقاء الموضوعات، وإما للمنكرات التي تحدث في مجالسهم، وإما لعدم التزامهم بسلَّم الأولويات، حيث يطرحون موضوعات المعرفة والمحبة على أناس هم أحوج إلى معرفة فرائض الصلاة..

ولهذا كان السلف ينهون عن حضور مجالسهم، ولكن ابن الجوزي لا يرى هذا في أيامه معللاً ذلك بتغير أوضاع الناس فيقول:

والنهي عن حضور مجالسهم على الإطلاق لا يحسن اليوم، لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صاداً لهم، واليوم كثر الإعراض عن العلم فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ، يردّه عن ذنب، ويحركه إلى توبة، وإنما الخلل في القاص، فليتق الله عزَّ وجلَّ.

وهكذا كان الإمام يختار لكل واقع ما يناسبه، فما كان يُنهى عنه في

الماضي أصبح اليوم حسناً لتغير المعطيات، ولا يكتفي بهذا، بل يضع يده على منشأ المشكلة، فليس العيب في مجالس الوعظ، فهي مجالس خير، وإنما العيب والخلل في شخصية الواعظ والقاص، ولهذا يوصيه بتقوى الله تعالى.

١١ ـ والزهاد والعباد، منهم العلماء، ومنهم غير العلماء.

فالعلماء منهم مطلوب منهم ما سبق الحديث عنه، وغير العلماء مطلوب منهم التعلم، فالجهل في هذا الفريق هو السبب في انحرافهم. يقول في ذلك:

تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة، بين جهل بالشرع، وابتداع بالرأي، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها، وبأحاديث لها أسباب، وجمهورها لا يثبت، فمن ذلك: أنهم سمعوا في القرآن العزيز: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها..

وكان هذا بداية التفريط في هذه الأمة.. فبدأ الخلل في سلوك بعضهم من حيث طعامهم وشرابهم ولباسهم، وحرصهم على الفقر..

وقد بذل الإمام ابن الجوزي جهده في تقديم النصح لهم وتذكيرهم بالطريق الصحيح الذي هو التزام الشرع..

وكانت خواطره المنبعثة من مشاهدتهم هي المعين الذي وضع بين أيدينا كل تلك الدراسات والتحليلات عن ظاهرهم وباطنهم.

فلفت نظرهم إلى وجوب العناية بالجسم، من حيث الطعام والشراب واللباس..

ورفض فكرة الفقر والسعي إليه، وبين وجوب حفظ الأموال والسعي في طلبها، وأن الفقر إنما هو مرض العجزة.

وشرح قضية التعامل مع الشهوات وموقف الشرع منها، وأن معظمها في دائرة الحلال والمباح.

وأما جهاد النفس، فلا يعني قتلها وإتلافها، وإنما هو جهاد كجهاد المريض العاقل نفسه في حملها على تناول الدواء الذي ترجو به العافية.

ويستغرب كيف أن الكثير من هؤلاء الزهاد يراؤون في تعاملهم وسلوكهم.. ويتساءل أين الإخلاص؟.

ويشرح في بعض خواطره موقفهم من العلم، فهم لا يبحثون عن صحة الأحاديث وعموم الأحاديث التي يعملون بها لا تثبت.

وإذا كانت الشريعة هي المرجع الذي يضبط به المسلم سلوكه، فإن أكثرهم بعيدون عنها..

ثم يكون توجيهه العام، هو الاقتداء بالنبي ﷺ، فهو الجادة السليمة، والطريق القويمة، التي لا بد من سلوكها لكل من أراد النجاة.

كان ذلك استعراضاً سريعاً للخواطر التي تخص العلماء والعباد والزهاد، ومعظمها في بيان الأخطاء، والتوجيه إلى الصواب، وكل هذا يدخل في باب النصيحة التي أمر بها رسول الله ﷺ.

إنها تذكير.. والذكرى تنفع المؤمنين.

* * *



الفَصْلُ الأوَّلُ

فضل العلم وطريق تحصيله

- ١ -
شرف العلم

ليس في الوجود شيءٌ أشرفُ من العلم، كيف لا وهو الدليل؛ فإذا عُدِم وقع الضَّلال.

وإنَّ من خفيّ مكائد الشيطان أن يُزيِّن في نفس الإنسان التعبُّد؛ ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم، حتى أنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر، وهذا قد ورد عن جماعة، وأحسن ظنِّي بهم أن أقول: كان فيها شيءٌ من رأيهم، وكلامهم فما أحبوا انتشاره، وإلا فمتى كان فيها علمٌ مفيدٌ صحيحٌ لا يخاف عواقبه؛ كان رميُها إضاعةً للمال لا يَحِلُّ.

وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم، حتى قال جعفر الخلدي[1]: لو تركني الصُّوفية جئتكم

---

(١) هو: جعفر بن محمد، أبو محمد: شيخ الصوفية في أيامه ببغداد، وأعلمهم بالحديث. توفي سنة (٣٤٨هـ)، حلية الأولياء (١٠/٣٨١).

بإسناد الدنيا، كتبت مجلساً عن العباس الدوري[(١)]، فلقيني بعض الصُّوفية فقال: دع علم الورَق، وعليك بعلم الخِرَق[(٢)]. ورأيت محبرةً مع بعض الصُّوفية، فقال له صوفيٌّ: استر عورتك. وقد أنشدوا للشِّبلي:

إذا طالبوني بعلم الورَق | برزت عليهم بعلم الخِرَق

وهذا من خفي حيل إبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنما فعل وزيَّنه عندهم لسببين:

أحدهما: أنه أرادهم يمشون في الظلمة.

والثاني: أنَّ تصفُّح العلم كلَّ يومٍ يزيد في العالِم، ويكشفُ له ما كان خفِي عنه، ويقوّي إيمانه ومعرفته، ويريه عيب كثير من مسالكه خصوصاً إذا تصفَّح منهاج الرسول ﷺ، والصحابة.

فأراد إبليس سدَّ تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهر أنَّ المقصود العمل لا العلم لنفسه، وخفي على المخدوع أنَّ العلم عملٌ وأيُّ عمل، فاحذر من هذه الخديعة الخفيَّة، فإنَّ العلم هو الأصلُ الأعظم، والنورُ الأكبر.

وربما كان تقليبُ الأوراق أفضلَ من الصَّوم والصَّلاة، والحجِّ والغزو، وكم من مُعرِضٍ عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبُّده، ويضيِّع كثيراً من الفرض بالنفل، ويشتغل بما يزعمُه الأفضل عن الواجب، ولو كانت عنده شعلةٌ من نور العلم لاهتدى، فتأملْ ما ذكرتُ لك ترشُدْ إن شاء الله تعالى[(٣)].



(١) هو: عباس بن محمد الدُّوري، أبو الفضل: حافظ. مولى بني هاشم، وكان من أئمة الحديث الثقات. توفي سنة (٢٧١هـ)، شذرات الذهب (٣/٣٠٢).
(٢) كل علم لا يستند إلى دليل من الشرع فلا قيمة له.
(٣) جاء هذا في الفصل (٥٨) من الأصل.

- ٢ -

سعادة العالم بعلمه

تأمَّلت خصوماتِ الملوك، وحرصَ التُّجار، ونفاقَ المتزهِّدين، فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس.

وإذا تفكر العاقل في ذلك علم أن أمر الحسِّيَّات قريبٌ يندفع بأقلِّ شيء، وأنَّ الغاية لا يمكن نيلُها، وإن بالغ عاد بالأذى على نفسه أضعاف ما ناله من اللذة، كمن يأكل كثيراً، أو ينكح كثيراً؛ فالسعيد من اهتمَّ لحفظ دينه، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة.

واعجباً! هذا الملبوسُ إذا كان وسطاً؛ خَدَم، وإذا كان مرتفعاً خُدِم، فإن نظر اللابس إليه معجباً به فإن الله لا ينظر إليه حينئذ؛ وفي الصحيح: **«بينا رجل يتبختر في بردته خُسِف به»**[١].

والمشروب إن كان حراماً؛ فعقابُه أضعافُ لذَّته، وهتكُه العِرْضَ بين الناس عقابٌ آخر، وإن كان مباحاً فالشَّره فيه يؤذي البدن.

وأما المنكوح فمداراة المستحسن يؤذي فوق كلِّ أذى، ومقاساة المستقبح أشدُّ أذى؛ فعليك بالتوسُّط.

وتفكَّر في أحوال السلاطين كيف قتلوا ظلماً وكم ارتكبوا حراماً! وما نالوا إلا يسيراً من لذات الحسِّ، فانقشع غيمُ العُمُر عن حسرات الفضائل، وحصول العقاب.

فليس في الدنيا أطيب عيشاً من منفردٍ عن العالم بالعلم، فهو أنيسُه، وجليسه، قد قنِع بما سلِم به دينُه من المباحات الحاصلة؛ لا عن تكلُّفٍ، ولا تضييع دين، وارتدى بالعزِّ عن الذل للدُّنيا وأهلها، والْتَحف بالقناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير، فوجدته يسلمُ دينُه ودنياه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٥).

واشتغاله بالعلم يدلُّه على الفضائل، ويفرِّجه في البساتين؛ فهو يسلَم من الشيطان، والسلطان، والعوام بالعزلة.

ولكن لا يصلُح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهلُ؛ فاته العلم، فتخبط[1].

❋ ❋ ❋

- ٣ -
مدار العلم على الدليل

مدارُ الأمر كلِّه على العقل؛ فإنه إذا تمَّ العقل لم يعملْ صاحبُه إلا على أقوى دليل.

وثمرةُ العقل فهمُ الخطاب، وتلمُّحُ المقصود من الأمر.

ومَنْ فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالباني على أساسٍ وثيق.

وإني رأيت كثيراً من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتَّفق، وربَّما كان دليلهم العادات؛ وهذا أقبحُ شيءٍ يكون.

ثم رأيت خلقاً كثيراً لا يتَّبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى، فإنهم يقلِّدون الآباء، ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع: هل صحيح، أم لا؟. وكذلك يثبتون الإله، ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز، فينسبون إليه الولد، ويمنعون جواز تغييره ما شرع.

وهؤلاء لم ينظروا حقَّ النظر لا في إثبات الصانع وما يجوز عليه، ولا في الدليل على صحة النبوَّات، فتقع أعمالهم ضائعةً كالباني على رَمْل.

ومن هذا القبيل في المعنى قومٌ يتعبَّدون، ويتزهَّدون، وينصِبون أبدانهم في العمل بأحاديث باطلة، ولا يسألون عنها مَنْ يعلم.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٨١).

ومن الناس من يثبت الدليل، ولا يفهم المقصود الذي دلَّ عليه الدليل.

ومن هذا الجنس قومٌ سمعوا ذمَّ الدنيا فتزهّدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أنَّ الدُّنيا تذمُّ لذاتها، وأنَّ النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، وعذَّبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها؛ جاهلين بقوله عليه الصلاة والسلام: **«إنَّ لنفسك عليكَ حقّاً»**[1].

وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض، ونحولِ الجسم، وضعفِ القوى، وكلُّ ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمُّح للمراد.

وفي الحديث الصحيح: أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لما حلَب له الرَّاعي في طريق الهجرة صبَّ الماء على القدح حتى برد أسفلُه، ثم سقى رسولَ الله ﷺ، وفرَش له في ظلِّ صخرة.

وكان يُستعذَبُ لرسول الله ﷺ الماء، وقال: **«إنْ كان عندكم ماءٌ بات في شَنٍّ، وإلا كرعنا»**[2].

ألا ترى إلى سفيان الثوري، فإنَّه كان شديد المعرفة والخوف، وكان يأكل اللذيذ، ويقول: إنَّ الدابة إذا لم يُحسنْ إليها لم تعمل.

ولعلَّ بعضَ من لم يسمع كلامي هذا يقول: هذا ميل على الزُّهاد.

فأقول: كن مع العلماء، وانظر إلى طريق الحسن، وسفيان، ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد، والشافعي، وهؤلاء أصول الإسلام.

ولا تقلِّد دينك مَنْ قلَّ علمه، وإن قوي زهدُه، واحمل أمره على أنه كان يطيق هذا، ولا تقتد بهم فيما لا تطيقه، فليس أمرنا إلينا، والنفس وديعة عندنا.

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦٢١).

فإن أنكرت ما شرحتُه؛ فأنت ملحَقٌ بالقوم الذين أنكرتُ عليهم؛ هذا رمزٌ إلى المقصود والشرح يطول[1].

❊ ❊ ❊

- ٤ -
طريقة تحصيل العلم

اعلم أنَّ المتعلمَ يفتقر إلى دوام الدراسة، ومن الغلط الانهماكُ على الإعادة ليلاً ونهاراً؛ فإنَّه لا يلبث صاحبُ هذه الحال إلا أياماً، ثم يفترُ أو يمرَض.

ومن الغلط حفظُ الكثير، أو الحفظُ من فتور؛ فإنَّ القلب جارحةٌ من الجوارح، وكما أن من الناس من يحمل المئة رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، فكذلك القلوب.

فليأخذ الإنسان على قدْرِ قوَّته ودونها؛ فإنه إذا استنفدها في وقتٍ؛ ضاعت منه أوقات، كما أن الشَّرِه يأكلُ فَضْلَ لُقيمات، فيكون سبباً إلى منع أكلات.

والصواب أن يأخذ قدْر ما يطيق، ويعيدُ في وقتين من النَّهار والليل، ويرفُه القوى في بقية الزمان.

والدوام أصلٌ عظيم، فكم ممَّن ترك الاستذكار بعد الحفظ فضاع زمنٌ طويلٌ في استرجاع محفوظٍ قد نُسِي.

وللحفظ أوقاتٌ من العمر، فأفضلُها الصبا، وما يقاربه من أوقات الزمان.

وأفضلُها إعادةُ الأسحار وأنصافِ النَّهار، والغدوات خير من العشيات، وأوقات الجوع خيرٌ من أوقات الشِّبع.

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٥٢).

ولا يُحْمَدُ الحِفظ بحضرة خُضْرةٍ وعلى شاطىء نهر، لأنَّ ذلك يُلْهي، والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل.

والخلوة أصلٌ، وجمع الهمّ أصلُ الأصول.

وترك النفس من الإعادة يوماً في الأسبوع ليثبت المحفوظ، وتأخذَ النَّفس قوةً كالبنيان يُترك أياماً حتى يستقرَّ، ثم يُبنى عليه.

وتقليلُ المحفوظ مع الدوام أصلٌ عظيم، وألاَّ يشرَع في فنٍّ حتى يُحْكِم ما قبله.

ومن لم يجد نشاطاً للحفظ فليتركْه؛ فإنَّ مكابرة النفس لا تصلُح، وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة؛ فإنَّ للمأكولات أثراً في الحفظ. قال الزُّهري: ما أكلت خلاً منذ عالجتُ الحفظ.

وقيل لأبي حنيفة: بم يستعان على حفظ الفقه؟ قال: بجمع الهمِّ.

وقال حمَّاد بن سلمة[1]: بِقلَّة الغمِّ.

وقال مكحول[2]: مَنْ نظف ثوبه قلَّ همُّه، ومن طابت ريحُه زاد عقله، ومن جمع بينهما زادت مروءتُه.

وأختار للمبتدئ في طلب العلم: أن يدافع النِّكاح مهما أمكن؛ فإنَّ أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة؛ وهذا لأجل جمع الهمِّ.

فإنْ غلَب عليه الأمرُ تزوَّج، واجتهد.. لتتوفرَ القوةُ على إعادة العلم.

---

(١) هو: حماد بن سلمة، أبو سلمة: مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث، توفي سنة (١٦٧هـ). سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧).

(٢) هو: مكحول بن أبي مسلم الشامي، أبو عبدالله: فقيه الشام في عصره. من حفَّاظ الحديث. توفي سنة (١١٢هـ). سير أعلام النبلاء (١٥٥/٥).

ثم لينظرْ ما يحفظ من العلم، فإنَّ الْعُمْرَ عزيزٌ، والعلمَ غزير.

وإنَّ أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيرُه أولى منه، وإنْ كان كلُّ العلوم حسناً، ولكن الأولى تقديمُ الأهمّ والأفضل.

وأفضل ما تشوغل به حفظُ القرآن، ثم الفقه، وما بعد هذا بمنزلة تابع.

ومَنْ رُزِق يقظةً دلته يقظتُه، فلم يحتج إلى دليل.

ومَنْ قصد وجه الله تعالى بالعلم دلَّه المقصود على الأحسن: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢](١).



وما رأيت أصعبَ على النفس من الحفظ للعلم والتَّكْرار؛ وخصوصاً تَكْرار ما ليس لها حظٌّ في تَكراره، وحفظه حظّ؛ مثل مسائل الفقه؛ بخلاف الشِّعر والسَّجع، فإنَّ لها لذة في إعادته وإن كان يصعُب، لأنَّها تلتذُّ به مرةً ومرتين، فإذا زاد التَّكرار صعُب عليها، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع.

فتراها تخلد إلى الحديث، والشِّعْر، والتصانيف، والنَّسخ؛ لأنَّه يمرُّ بها كلّ لحظة ما لم تره، فهو في المعنى كالماء الجاري، لأنَّه جزءٌ بعد جزء، وكذا من ينسخ ما يحبُّ أن يسمعه، أو يصنف، فإنه يلتذُّ بالجِدَّة، ويستريح من تعب الإعادة.

إلا أنه ينبغي للعاقل أن يكون جلُّ زمانه للإعادة، خصوصاً الصَّبيُّ والشابُّ، فإنه يستقرُّ المحفوظُ عندهما استقراراً لا يزول.

ويجعل أوقات التَّعب من الإعادة للنَّسخ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ

(١) جاء هذا في الفصل (١٢١).

عن الإعادة فيقهرها، فإنه يحمد ذلك حمد السُّرى وقت الصباح[1]، وسيندم من لم يحفظ نَدَمَ الكُسَعِيِّ وقت الحاجة إلى النظر والفتوى.

وفي الحفظ نكتة ينبغي أن تلحظ، وهو أن الفقيه يحفظ الدرس ويعيده، ثم يتركه، فينساه، فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه، فينبغي أن يحكم الحفظ، ويكثر التكرار؛ ليثبت قاعدة الحفظ[2].



وينبغي لطالب العلم أن يكون جُلُّ همته مصروفاً إلى الحفظ والإعادة؛ فلو صحَّ صرفُ الزَّمان إلى ذلك كان الأولى، غير أنَّ البدن مطيَّة، وإجهاد السير مظنةُ الانقطاع.

ولما كانت القوى تَكِلُّ فتحتاجُ إلى تجديد، وكان النَّسخُ، والمطالعة، والتصنيف لا بدَّ منه، مع أنَّ المهمَّ الحِفْظُ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين:

يكون الحِفْظُ في طرفي النَّهار، وطرفي الليل.

ويوزع الباقي بين عملٍ بالنَّسخ والمطالعة، وبين راحةٍ للبدن، وأخذ لحظة.

ولا ينبغي أن يقع الغَبْنُ بين الشُّركاء، فإنَّه متى أخذ أحدُهم فوق حقِّه أثَّر الغبن وبان أثرُه.

وإنَّ النفس لتهربُ إلى النَّسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأنَّ ذلك أشهى، وأخفُّ عليها.

فليحذر الرَّاكب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا

---

(١) في المثل: عند الصباح يحمدُ القوم السُّرى. والسرى: السير بالليل، وهذا مثل يضرب في احتمال المشقة رجاء الراحة.

(٢) جاء هذا في الفصل (١٨٧).

تطيق، ومع العدل والإنصاف يتأتّى كلُّ مراد، ومن انحرف عن الجادة؛ طالتْ طريقه.

ومن طوى منازل في منزل؛ أوشك أن يفوتَه ما جَدَّ لأجلِهِ.

على أنَّ الإنسان إلى التحريض أحوجُ؛ لأنَّ الفتور ألصق به من الجِدِّ.

وبعد: فاللازم في العلم طلبُ المهمّ؛ فربَّ صاحبِ حديثٍ حفظ مثلاً لحديث: **«من أتى الجمعة فليغتسل»**[1] عشرين طريقاً، والحديثُ قد ثبت من طريقٍ واحد، فشغَله ذلك عن معرفة آداب الغسل.

والعُمُر أقصرُ وأنفَسُ من أن يُفرَّط منه في نفس.

وكفى بالعقل مرشداً إلى الصَّواب مَنْ عضده التوفيق[2].

❋ ❋ ❋

- ٥ -
الأولويات في طلب العلم

اعلم أنّه لو اتَّسع العُمُرُ لم أمنع من الإيغال في كلِّ علم إلى منتهاه؛ غير أنَّ العُمُرَ قصير، والعلمَ كثير.

فينبغي للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشرة.

ومن الحديث على الصِّحاح، والسنن والمسانيد المصنفة؛ فإنَّ علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحدِّ.

وعلمُ الحديث يتعلَّق بعضُه ببعض، وهو مشتهى، والفقهاء يسمُّونه: علم الكسالى، لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه، ولا يكادون يعانون حفظه، ويفوتهم المهمُّ، وهو الفقه.

---

(١) رواه البخاري (٨٧٧)، ومسلم (٨٤٤).

(٢) جاء هذا في الفصل (١٤٦).

وقد كان المحدِّثون قديماً همُ الفقهاء، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث، والمحدِّثون لا يعرفون الفقه.

فمن كان ذا همَّة، ونصح نفسه تشاغل بالمهمِّ من كلِّ علم، وجعل جلَّ شُغْله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها.

وقد قال أبو زُرعة[1]: كتب إليَّ أبو ثور[2]: فإنَّ هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلاً عن رسول الله ﷺ، والذي صحَّ منه طرق يسيرة.

فالتشاغل بغير ما صحَّ يمنع التشاغل بما هو أهم، ولو اتسع العمر كان استيفاءُ كلِّ الطرق في كل الأحاديث في غاية الجودة، لكن العمر قصير.

ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير، حتى إنه سئل عن الحائض؛ أيجوز أن تغسل الموتى؟! فلم يعلم، حتى جاء أبو ثور فقال: يجوز، لأن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أرجِّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض)[3]، فيحيى أعلم بالحديث منه، ولكن لم يتشاغل بفهمه.

فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلَهم كثرةُ الطرق.

ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثةٌ يُسْأَلُ عنها شيخٌ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عزَّ وجلَّ فيها.

---

(١) هو: عبيدالله بن عبدالكريم: من حُفَّاظ الأئمة. جالَسَ أحمد بن حنبل. كان يحفظ مئة ألف حديث. توفي سنة (٢٦٤هـ). الأعلام (١٩٤/٤).

(٢) هو: إبراهيم بن خالد الكلبي: الفقيه، صاحب الإمام الشافعي. قال ابنُ حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفَضْلاً. صنَّف الكتب. وفرَّع على السُّنن، وذبَّ عنها. توفي سنة (٢٤٠هـ). الأعلام (٣٧/١).

(٣) رواه البخاري (٢٩٥)، ومسلم (٢٩٧).

وكذلك أنهى مَنْ يتشاغل بالتزهُّد والانقطاع عن الناس أن يُعرِض عن العلم، بل ينبغي أن يجعل لنفسه منه حظاً، ليعلم إنْ زلَّ كيف يتخلص[1].



وقد رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب، فينفقون أعمارَهم في كتابتها، وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار في النَّسخ والسماع إلى آخر العمر؛ ثم ينقسمون فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه، ولعلَّه لا يفهم جواب حادثة، ولعلَّه عنده لحديث: **«أسلم سالمها الله»**[2] مائة طريق.

وقد حُكِي لي عن بعض أصحاب الحديث أنَّه سمع جُزْء ابن عرفة عن مئة شيخ، وأنَّ عنده سبعين نسخة.

ومنهم من يجمع الكتب، ويسمعها، ولا يدري ما فيها؛ لا مِنْ حيث صحَّتها، ولا مِنْ فهم معناها، فتراه يقول: الكتابُ الفلانيُّ سماعي، وعندي له نسخة، والكتاب الفلانيُّ، والفلاني، فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه، وقد صدَّه اشتغالُه بذلك عن المهمِّ من العلم، فهم كما قال الحطيئة:

زواملُ للأخبارِ لا عِلْمَ عندها ... بمُثْقِلِها إلا كعلم الأباعرِ[3]
لعمركَ ما يدري البعيرُ إذا غدا ... بأوساقِهِ أَوْ رَاحَ ما في الغرائرِ[4]

ثمَّ ترى منهم من يتصدَّر بإتقانه للرواية وحدها، فيمدُّ يده إلى ما ليس مِنْ شُغْله. فإنْ أفتى أخطأ، وإن تكلم في الأصول خلط.

(١) جاء هذا في الفصل (٣٣٢).
(٢) رواه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٢٥١٦).
(٣) «زوامل»: جمع زاملة، وهي الدابة يُحمل عليها المتاع والطعام في السفر. «الأباعر»: جمع بعير.
(٤) «أوساقه»: جمع وَسْق، وهو حِمْل بعير. «الغرائر»: جمع غِرارة، وهي كيس كبير من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب.

ولولا أني لا أحبُّ ذكر الناس لذكرت مِنْ أخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به، ولكنَّه لا يخفى على المحقِّق حالُهم.

فإنْ قال قائل: أليس في الحديث: **«منهومان لا يشبعان: طالبُ علمٍ، وطالبُ دنيا»**[1].

قلت: أما العالم، فلا أقول له: اشبَعْ من العلم، ولا: اقتصر على بعضه، بل أقول له: قدِّم المهمَّ فإنَّ العاقل من قَدَّر عمره، وعمل بمقتضاه، وإنْ كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العُمْر، غير أنَّه يبني على الأغلب.

فإن وصل فقد أعدَّ لكلِّ مرحلة زاداً، وإنْ مات قبل الوصول فحسبه ذلك.

فإذا علم العاقل أنَّ العُمْرَ قصير، وإنَّ العلم كثير، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه، ليُحَصِّل كلَّ طريق، وكلَّ رواية، وكلَّ غريب؛ وهذا لا يفرَغُ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً إن تشاغل بالنَّسخ. ثم لا يحفظ القرآن.

أو يتشاغل بعلوم القرآن، ولا يعرف الحديث.

أو بالخلاف في الفقه، ولا يعرف النَّقل الذي عليه مدار المسألة.

فإن قال قائل: فدبِّرْ لي ما تختارُ لنفسك.

فأقول: ذو الهمة لا يخفى من زمان الصّبا، كما قال سفيان بن عيينة[2]؛ قال لي أبي ـ وقد بلغت خمْسَ عَشْرَة سنة ـ: أنه قد انقضت عنك شرائع الصبا، فاتبع الخير تكنْ من أهله. فجعلت وصية أبي قِبْلَةَ أميلُ إليها، ولا أميل عنها.

والمقصود: أنه قد عُلم قِصَرَ العُمْرِ، وكثرة العلم، فيبتدئ بالقرآن

---

(١) رواه الدارمي (٣٣٤).

(٢) هو: سفيان بن عُيينة، أبو محمد: مُحدِّث الحرم المكي، من الموالي. كان حافظاً، ثقة، واسع العلم، كبير القدر. توفي سنة (١٩٨هـ). حلية الأولياء (٧/٢٧٠).

وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك منه شيء.

وإنْ صحَّ له قراءةُ القراءات السبعة، وأشياء من النَّحو، وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النَّقل كالصِّحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث عِلْم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظرْ في أصول ذلك.

وقد رتبت العلماءُ من ذلك ما يستغني به الطالبُ عن التَّعب.

ولينظرْ في التواريخ؛ ليعرف ما لا يستغني عنه، كنسب الرسول ﷺ، وأقاربه، وأزواجه، وما جرى له.

ثم ليقبلْ على الفقه فلينظرْ في المذهب والخلاف، وليكن اعتمادُه على مسائل الخلاف، فلينظر في المسألة وما تحتوي عليه، فيطلبه من مظانه، كتفسير آيةٍ، وحديثٍ، وكلمة لغة.

ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض.

وليعلمْ أن الفقه عليه مدار العلوم.

ويكفيه من النَّظر في الأصول(١) ما يستدلُّ به على وجود الصانع، فإذا أثبته بالدليل، وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز، وأثبت إرسال الرُّسل، وعلم وجوب القبول منهم، فقد احتوى على المقصود من علم الأصول.

فإن اتَّسع الزمان للتزيُّد من العلم، فليكنْ من الفقه، فإنه الأنفع.

ومهما فسح له في المَهْل، فأمكنه تصنيفٌ في علم، فإنَّه يخلف بذلك خَلْفَهُ خَلَفاً صالحاً.

مع اجتهاده في التسبُّب إلى اتخاذ الولد.

ثم يعلمُ أنَّ الدنيا معبرةٌ، فيلتفت إلى فهم معاملة الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ مجموع ما حصَّله من العلم يدلُّه عليه.

---

(١) أي شأن العقيدة.

فإذا تعرَّض لتحقيق معرفته، ووقف على باب معاملته؛ فقلَّ أن يقف صادق إلا ويجذب إلى مقام الولاية، ومن أريد وفِّق.

وإنَّ لله عزَّ وجلَّ أقواماً يتولى تربيتَهم، ويبعثُ إليهم في زمن الطفولة مؤدباً يسمىٰ العقلُ، ومقوماً يقال له الفهم، ويتولى تأديبهم وتثقيفهم، ويهيىءُ لهم أسباب القرب منه، فإنْ لاح قاطعٌ؛ قطعهم عنه، وإن تعرضت بهم فتنة؛ دفعها عنهم. فنسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا منهم، ونعوذُ به من خِذْلانٍ لا ينفعُ معه اجتهاد[1].

❋ ❋ ❋

- ٦ -
علم لا بد منه

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أنْ يُمزجَ بالرِّقائق والنظر في سِيَرِ السَّلف الصَّالحين.

فأمَّا مجردَ العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عَمَلٍ في رقَّة القلب، وإنما ترقُّ القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السَّلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصودَ النَّقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدِّثين وطلابَ الحديث هِمَّة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغالِبُ به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء.

(١) جاء هذا في الفصل (١١٤).

وقد كان جماعةٌ من السَّلف يقصِدون العبد الصالح للنَّظر إلى سَمْته وهديه؛ لا لاقتباس علمه، وذلك أنَّ ثمرة علمه هديُه وسَمْتُه.

فافهم هذا، وامزجْ طلب الفقه والحديث بمطالعة سِيَرِ السَّلف والزَّهاد في الدُّنيا؛ ليكون سبباً لرقَّة قلبك.

وقد جمعتُ لكلِّ واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه؛ فجمعتُ كتاباً في أخبار الحسن، وكتاباً في أخبار سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وبِشْر الحافي، وأحمدِ بن حنبل، ومعروف، وغيرهم من العلماء والزُّهاد. والله الموفق للمقصود.

ولا يصلح العمل مع قلَّة العلم.

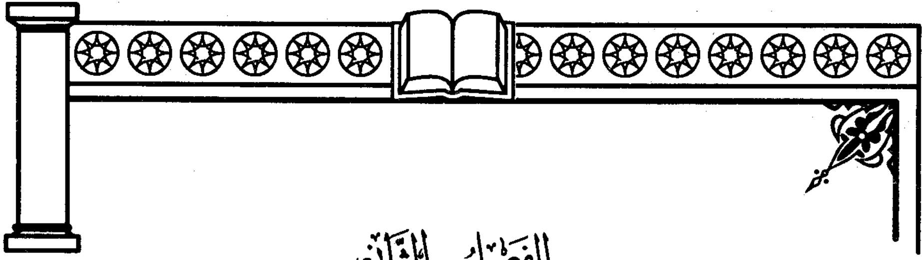
فهما في ضرب المثل كسائق وقائد، والنفس بينهما حَرون[1]، ومع جِدِّ السائق والقائد ينقطع المنزل، ونعوذ بالله من الفتور[2].

* * *

---

(١) حرون: متمردة صعبة الانقياد.

(٢) جاء هذا في الفصل (١٥٥).



الفصل الثاني

ضرورة الثقافة العامة للعالم

- ١ -
الأخذ من كل علم بطرف

قد ثبت بالدليل شرفُ العلم وفضلُه، إلاَّ أنَّ طلاب العلم افترقوا، فكلٌّ تدعوه نفسه إلى شيء.

فمنهم من أذهب عُمْرَه في القراءات، وذاك تفريط في العُمْر، لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذة، وما أقبحَ بالقارىء أن يُسأل عن مسألةٍ في الفقه، ولا يدري! وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرةُ الطُّرق في روايات القراءات.

ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله، فحسب.

ومنهم من يتشاغل باللغة، فحسب.

ومنهم من يكتب الحديث، ويكثر، ولا ينظر في فهم ما كتب.

وقد رأينا في مشائخنا المحدِّثين من كان يُسأل عن مسألةٍ في الصلاة فلا يدري ما يقول، وكذلك القُرَّاء، وكذلك أهل اللغة، والنحو.

وحدَّثني عبدالرحمن بن عيسىٰ الفقيه، قال: حدثني ابن المنصوري،

قال: حضرنا مع أبي محمد بن الخشاب[1]، وكان إمامَ الناس في النَّحو واللغة، فتذاكروا الفقه، فقال: سلوني عما شئتم! فقال له رجل: إن قيل لنا رفع اليدين في الصَّلاة ما هو؟ فماذا نقول؟ فقال: هو ركن! فدهشت الجماعة من قلة فِقْهه.

وإنما ينبغي أن يأخذ من كلِّ علمٍ طرفاً.

ثم يهتمَّ بالفقه.

ثم ينظرَ في مقصود العلوم، وهو المعاملة لله سبحانه، والمعرفة به، والحبُّ له، وما أبله[2] من يقطع عمره في معرفة علم النجوم! وإنما ينبغي أن يعرف من ذلك التسيير والمنازل لعلم الأوقات.

وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيمياء[3] فإنه هذيان فارغ؛ وإذا كان لا يُتَصوَّر قلبُ الذهب نحاساً لم يتصوَّر قلبُ النحاس ذهباً، فإنما فاعل هذا مستحلٌّ للتدليس على الناس في النقود، هذا إذا صح له مراده.

وينبغي لطالب العلم أن يصحِّحَ قصده، إذ فقدُ الإخلاص يمنع قبول الأعمال.

وليجتهدْ في مجالسة العلماء، والنظر في الأقوال المختلفة، وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة.

وليجعل همَّته للحفظ، ولا ينظر، ولا يكتبْ إلا وقت التَّعب من الحفظ.

وليحذرْ صحبة السُّلطان.

---

(١) هو: عبدالله بن أحمد، أبو محمد: أعلم معاصريه بالعربية. كان عارفاً بعلوم الدين، مطلعاً على شيء من الفلسفة والحساب والهندسة. كثير المزاح. توفي سنة (٥٦٧هـ). الأعلام (٤/٦٧).

(٢) الأصح أن يقال: أشد بلاهة.

(٣) المقصود بعلم الكيمياء ـ يومئذٍ ـ نوع من المحاولات لجعل المعادن الخسيسة معادن ثمينة.

وليَنظرْ في منهاج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وليجتهدْ في رياضة نفسه والعمل بعلمه، ومَنْ تولاَّه الحقُّ؛ وفَّقه[١].

* * *

وعلى الفقيه أن يطالع من كلِّ فنٍّ طرفاً، من تاريخ، وحديثٍ، ولغةٍ، وغير ذلك؛ فإنَّ الفقه يحتاج إلى جميع العلوم؛ فليأخذْ من كلِّ شيءٍ منها مهمَّاً.

ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول: اجتمع الشِّبلي، وشريكٌ القاضي[٢]. فاستعجبت له: كيف لا يدري بُعْد ما بينهما[٣]؟!.

وقال آخر في مناظرة: كانت الزوجية بين فاطمة وعليٍّ رضي الله عنهما غير منقطعة الحكم، فلهذا غسَّلها. فقلت له: ويحك! فقد تزوَّج أمامة بنتَ زينب، وهي بنتُ أختها، فانقطع.

وقد ذكر أبو المعالي الجويني في أواخر كتاب «الشامل في الأصول»، قال: قد ذكرت طائفة من الثِّقات المعتنين بالبحث عن البواطن أنَّ الحلاَّج، والجَنَّابي[٤] القِرْمِطي، وابن المقفع تواصوا على قلب الدول، وإفساد المملكة، واستعطاف القلوب؛ وارتاد كل منهم قطراً؛ فقطن الجَنَّابي في الإحساء، وتوغَّل ابن المقفع[٥] في أطراف بلاد الترك، وقطن الحلاَّج

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٢٧).

(٢) هو: شريك بن عبدالله النخعي، أبو عبدالله: عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة. كان عادلاً في قضائه. توفي سنة (١٧٧هـ). الأعلام (٣/١٦٣).

(٣) توفي الشبلي سنة (٣٣٤هـ)، وتوفي شريك القاضي سنة (١٧٧هـ). فكيف اجتمعا؟!.

(٤) هو: الحسن بن بهرام القرمطي، أبو سعيد: كبير القرامطة، ومعلن مذهبهم. أقام في البحرين تاجراً. استولى على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين. وكان شجاعاً، داهية، قتله خادمٌ له صقلبي في الحمام سنة (٣٠١هـ). الأعلام (٢/١٨٥).

(٥) هو: عبدالله بن المقفع: من أئمة الكتَّاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من الفرس. ترجم عن الفارسية كتاب: «كليلة ودمنة». توفي سنة (١٤٢هـ). الأعلام (٤/١٤٠).

ببغداد، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الأمنية؛ لبعد أهل بغداد عن الانخداع، وتوفر فطنتهم وصدق فراستهم.

قلت: ولو أنَّ هذا الرجل، أو من حكى عنه عرَف التاريخ لعلم أنَّ الحلاَّج لم يُدرِك ابن المقفَّع فإنَّ ابن المقفع أمر بقتله المنصور، فقتل في سنة أربع وأربعين ومئة. وأبو سعيد الجَنَّابي القرمطي ظهر في سنة ست وثمانين ومئتين. والحلاَّج قتل سنة تسع وثلاثمئة؛ فزمان القرمطي والحلاج متقاربان؛ فأما ابن المقفع فكلاً.

فينبغي لكلِّ ذي علم أن يساهم بباقي العلوم، فيطالع منها طرفاً؛ إذ لكلِّ علم بعلمٍ تعلُّق.

وما أقبح بمحدِّث يُسأل عن حادثةٍ، فلا يدري، وقد شغله منها جمع طرق الأحاديث.

وقبيحٌ بالفقيه أن يقال له: ما معنى قول رسول الله ﷺ كذا؟ فلا يدري صحة الحديث، ولا معناه.

نسأل الله عزَّ وجلَّ همَّةً عاليةً لا ترضى بالنقائص بمنّه ولطفه[1]!.



- ٢ -
همم العلماء السابقين

كانت همم القدماء من العلماء عليَّة، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمالهم؛ إلا أنَّ أكثر تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدَثرت الكتب ولم تُنسخ.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٣٣٧).

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثرْ من المطالعة، فإنَّه يرى من علوم القوم وعلو هِمَمِهم ما يشحَذ خاطره، ويحرِّك عزيمته للجِدِّ؛ وما يخلو كتابٌ من فائدة.

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم؛ لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عالية، فيقتدي بها المبتدئ، ولا صاحبَ ورع، فيستفيد منه الزاهد.

فاللَّهَ اللَّهَ عليكم بملاحظة سير السلف! ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم؛ فالاستكثارُ مِنْ مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم كما قال:

فاتني أن أَرَى الديارَ بطَرْفي ... فلعلّي أَرَى الديارَ بِسَمْعِي

وإنِّي أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب، وابن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه. ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب.

فاستفدْتُ بالنَّظر فيها من ملاحظة سِيَر القوم، وقَدْر هِمَمِهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر هِمَمَ الطُّلاب، ولله الحمد[1].



(١) جاء هذا في الفصل (٣٣٨).

- ٣ -
الفقه أولاً

أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته. ومَنْ تأمَّل ثمرةَ الفقه؛ علم أنّه أفضلُ العلوم[١].

فإنَّ أربابَ المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبداً، وإن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن، أو بالحديث، أو باللغة.

واعتبرْ هذا بأهل زماننا، فإنَّك ترى الشاب يعرفُ مسائلَ الخلاف الظاهرة، فيستغني، ويعرفُ حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النِّحريرُ من باقي العلماء.

وكم رأينا مبرِّزاً في علم القرآن، أو في الحديث، أو في التفسير، أو في اللغة؛ لا يعرف مع الشيخوخة مُعْظَم أحكام الشرع، وربما جَهِل علم ما ينويه في صلاته.

على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم؛ فإنَّه لا يكون فقيهاً.

بل يأخذ من كل علم بحظٍّ، ثم يتوفر على الفقه، فإنه عزُّ الدُّنيا والآخرة[٢].



- ٤ -
التأليف أكثر نفعاً

رأيت من الرأي القويم أنَّ نفعِ التصانيف أكثرُ من نفع التعليم بالمشافهة، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً

---

(١) أي أفضل العلوم بعد العلم بالله تعالى، فمن المتفق عليه أن العلم بالله تعالى هو أشرف العلوم.

(٢) جاء هذا في الفصل (١١٠).

لا يُحصون، ما خلقوا بعد، ودليل هذا: أنَّ انتفاعَ الناس بتصانيف المتقدِّمين أكثرُ من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشائخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفَّر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد، فإنَّه ليس كل من صنَّف صنف، وليس المقصودُ جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يُطْلِعُ الله عزَّ وجلَّ عليها من عباده، ويوفِّقُه لكشفها، فيجمعُ ما فُرِّقَ، أو يرتب ما شُتِّتَ، أو يشرح ما أُهمِل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنامُ التصنيف في وسط العُمُر؛ لأنَّ أوائل العمر زمنُ الطلب، وآخره كَلالُ الحواسّ، وربما خان الفهمُ والعقلُ مَنْ قُدِرَ عُمُرُه، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنَّه يعلم الغيب، فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدىء بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم. هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ، وأُعِين على تحصيل المطالب.

فأما إذا قَلَّت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عُمُرِه ضعيفَ الطَّلب، فلم ينل ما يريده في هذا الأوان، أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويسمع الحديث والعلم، ويعلِّل التصانيف إلى أن يقطع منهم إلى رأس السبعين.

فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذَكَرَ الآخرة، والتهيُّؤ للرَّحيل؛ فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليمٍ يحتسبه، أو تصنيفٍ يفتقر إليه، فذلك أشرفُ العُدَدِ للآخرة.

ولتكن همَّته في تنظيف نفسه، وتهذيب خِلاله[1]، والمبالغةِ في استدراك زلاته، فإن اختطف في خلال ما ذكرنا؛ فـ «نيَّةُ المؤمن خيرٌ مِنْ عمله»، وإن بلغ إلى هذه المنازل؛ فقد بيَّنَّا ما يصلح لكلِّ منزل.

---

(١) «خلاله»: خصاله.

وقد قال سفيان الثوري: مَن بلغ سِنَّ رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفناً[1].

وقد بلغ جماعةٌ من العلماء سبعاً وسبعين سنة، منهم: أحمد بن حنبل، فإنْ بلغها؛ فليعلمْ أنَّه على شفير القبر، وأنَّ كلَّ يوم يأتي بعدها مستطرف فإن تمَّت له الثمانون؛ فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله، وتهيئة زاده، وليجعل الاستغفارَ حليفَه، والذكرَ أليفَه.

وليدقِّقْ في محاسبة النفس في بذل العلم، أو مخالطة الخَلْق، فإنَّ قُرْبَ الاستعراض للجيش يوجب عليهم الحذَرَ من العارض، وليبالغْ في إبقاء أثره قبل رحيله، مثل: بثُّ علمه، وإنفاقُ كتبه، وشيء من ماله.

وبعد: فمَنْ تولاه الله عزَّ وجلَّ: علَّمه، ومن أراده ألهمه. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن ينعم علينا بأن يتولانا، ولا يتولى عنا! إنه قريب مجيب[2].

* * *

---

(١) حلية الأولياء (٧/٧٢).

(٢) جاء هذا في الفصل (١٦٥).



الفَصْلُ الثَّالِثُ

العلم والعمل

- ١ -
العمل بالعلم هو الأصل الأكبر

لقيت مشايخَ أحوالُهم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعَهم لي في صحبته العاملُ منهم بعلمه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.

ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون، ويعرفون، ولكنَّهم كانوا يتسامحون بِغيبةٍ يُخرجونها مخرج جرحٍ وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويُسرعون الجواب لئلا ينكَسر الجاهُ وإن وقع خطأ.

ولقيت عبدالوهاب الأنماطي(١) فكان على قانون السَّلف لم يُسْمَعْ في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى، واتصل بكاؤه، فكنت ـ وأنا صغير السن حينئذٍ ـ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سَمْتِ المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل.

---

(١) هو: عبدالوهاب بن مبارك، أبو البركات: محدِّث بغداد في عصره. كان لا يُجيز الرواية بالإجازة عن الإجازة. توفي سنة (٥٣٨هـ). الأعلام (١٨٥/٤).

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي[1]، فكان كثير الصَّمت، شديدَ التَّحرِّي فيما يقول، مُتقناً مُحقِّقاً، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادرُ بجوابها بعضُ غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن، .وكان كثير الصَّوم والصَّمْت.

فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرهما.

ففهمتُ من هذه الحالة: أنَّ الدليل بالفعل أرشدُ من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخ كانت لهم خلواتٌ في انبساطٍ ومِزاح، فراحوا عن القلوب، وبدَّد تفريطهم ما جمعوا من العلم، فقلَّ الانتفاع بهم في حياتهم، ونُسُوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحدٌ أن يلتفت إلى مصنَّفاتهم.

فاللَّهَ اللَّهَ في العلم بالعمل. فإنَّه الأصل الأكبر.

والمسكينُ كلُّ المسكين مَنْ ضاع عمره في علم لم يعملْ به، ففاته لذاتُ الدُّنيا، وخيراتُ الآخرة، فقدِم مفلساً على قوة الحُجَّة عليه[2].

***

- ٢ -
المطلوب حقيقة العلم لا صورته

رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده.

فالقارىء مشغولٌ بالروايات، عاكفٌ على الشواذ، يرى أنَّ المقصود نفسُ التلاوة، ولا يتلمَّح عظمة المتكلِّم، ولا زجرَ القرآن، ووعدَه، وربما ظنَّ أنَّ حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخَّص الذنوب، ولو فهم؛ لعلم أنَّ الحجة عليه أقوى ممَّن لم يقرأ.

---

(١) هو: موهوب بن أحمد: عالم بالأدب واللغة. توفي سنة (٥٤٠هـ). الأعلام (٣٣٥/٧).

(٢) جاء هذا في الفصل (٩٤).

والمحدِّث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمَّل مقصود المنقول، ويرى أنَّه قد حفظ على الناس الأحاديث؛ فهو يرجو بذلك السَّلامة، وربَّما ترخص في الخطايا ظناً منه أنَّ ما فعل في الشريعة يدفعُ عنه.

والفقيه قد وقع له أنَّه بما قد عرف من الجدال الذي يقوِّي به خصامه، والمسائل التي قد عرف فيها المذهب؛ قد حصل بما يُفتي به الناس ما يرفع قَدْرَه، ويمحو ذنبه، فربَّما هجم على الخطايا ظناً منه: أن ذلك يدفع عنه.

وربَّما لم يحفظِ القرآن، ولم يعرِفِ الحديث، وأنهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق.

وينضاف إليه مع الجهل بهما حبُّ الرياسة، وإيثارُ الغلبة في الجدل؛ فتزيد قسوةُ قلبه.

وعلى هذا أكثر الناس، صُوَرُ العلم عندهم صناعة، فهي تُكسِبهم الكِبْر، والحماقة.

وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ أفنى عمره في علوم كثيرة: أنه فتن في آخر عمره بفسق أصرَّ عليه، وبارز الله به، وكانَت حاله تعطي بمضمونها أنَّ علمي يدفع عني شرَّ ما أنا فيه، ولا يبقى له أثر، وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة، فلا يرى عنده أثرٌ لخوف، ولا ندم على ذنب.

قال [الحاكي]: فتغيَّر في آخر عمره، ولازمه الفقر، فكان يلقى الشدائد، ولا ينتهي عن قبح حاله، إلى أن جمعت له يوماً قراريط على وجه الكُدْية[1] فاستحيا من ذلك، وقال: يا رب إلى هذا الحد!.

---

(١) «الكدية»: حِرْفةُ السائل الملحّ.

قال الحاكي: فتعجبت من غفلته كيف نسي الله عزَّ وجلَّ، وأراد منه حسن التدبير له، والصيانة، وسعة الرزق، وكأنه ما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ولا علم أنَّ المعاصي تسدُّ أبواب الرزق، وأنَّ مَنْ ضيَّع أمر الله ضيَّعه الله.

فما رأيت علماً ما أفاد كعلم هذا، لأنَّ العالم إذا زل؛ انكسر، وهذا مصرٌّ لا تؤلمه معصيته، وكأنه يجوز له ما يفعل، أو كأنه له التصرُّف في الدين تحليلاً وتحريماً، فمرض عاجلاً، ومات على أقبح حال.

قال الحاكي: ورأيت شيخاً آخر حصَّل صور علم، فما أفادته؛ كان أيُّ فسق أمكنه لم يتحاش منه، وأيّ أمر لم يعجبهُ من القَدَرِ عارضه بالاعتراض على المقدِّر واللوم؛ فغاش أكْدَرَ عيشٍ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج[1].

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورث الخشية والخوف، ويرى المنَّة للمنعم بالعلم، وقوة الحجة له على المتعلم.

نسأل الله عزَّ وجلَّ يقظةً تفهِّمنا المقصود، وتعرِّفنا المعبود! ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمَّون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون! ويعلمون ولا يعملون! ويتكبرون على الناس بما لا يعملون! ويأخذون عرض الأدنى[2] وقد نهوا عما يأخذون. غلبتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخسُّ حالاً من العوام الذين يجهلون ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧][3].



(١) درج: مات.

(٢) عرض الأدنى: حطام الدنيا.

(٣) جاء هذا في الفصل (٣٣٦).

رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم؛ فهمُّ الفقيه التَّدريس، وهمُّ الواعظ الوعظ.

فهذا يراعي درسه، فيفرح بكثرة مَنْ يسمعه، ويقدح في كلام من يخالفه، ويُمضِي زمانه في التفكُّر في المناقضات، ليقهر مَنْ يجادله!. وعينه إلى التصدُّر والارتفاع في المجالس، وربما كانت همَّته جَمْعُ الحطام، ومخالطةُ السَّلاطين.

والواعظ همَّتَه ما يزوِّقُ به كلامه، ويكثرُ جمعه، ويجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه، فإن كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه.

وهذه قلوبٌ غافلةٌ عن الله عزَّ وجلَّ، إذ لو كانت لها به معرفة؛ لاشتغلت به، وكان أنسها بمناجاته، وإيثارُها لطاعاته، وإقبالها على الخلوة به.

لكنَّها لما خلت من هذا؛ تشاغلت بالدُّنيا، وذاك دنيا مثلها.

فإذا خلت بطاعة الله تعالى؛ لم تجدْ لها طعماً، وكان جميع الناس أحبَّ إليها، وزيارةُ الخلق لها آثر عندها، وهذه علامة الخِذْلان.

وعلى ضدِّ هذا متى كان العالِمُ مقبلاً على الله سبحانه، مشغولاً بطاعته؛ كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومحادثتهم، وأحبَّ الأشياء إليه الخلوة، وكان عنده شغل عن القدح في النظر، أو عن طلب الرياسة، فإنَّ ما علَّق به همَّته من الآخرة أعلى من ذلك.

والنفس لا بدَّ لها ممَّا تشاغل به. فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق؛ فإنما يربي رياسته، وذلك يوجب الإعراض عن الحقِّ، و: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤][1].



(١) جاء هذا في الفصل (٣١٥).

- ٣ -

المقصود من التكليف العمل

تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذلُّ، واعتقاد التقصير والعجز.

ومثَّلتُ العلماء والزُّهاد العاملين صنفين.

فأقمتُ في صفِّ العلماء مالكاً، وسفيانَ، وأبا حنيفة، والشافعي، وأحمد.

وفي صفِّ العبَّاد: مالك بن دينار، ورابعة، ومعروفاً الكرخي، وبِشْر بن الحارث.

فكلَّما جدَّ العباد في العبادة، وصاح بهم لسان الحال: عباداتكم لا يتعدّاكم نفعها، وإنما يتعدَّى نفعُ العلماء، وهم ورثة الأنبياء، وهم الذين عليهم المُعَوَّل، ولهم الفضل، إذا أطرقوا، وانكسروا، وعلموا صدق تلك الحال.

وجاء مالكُ بنِ دِينار إلى الحسن يتعلم منه، ويقول: الحسن أستاذنا.

وإذا رأى العلماءُ لهم بالعلم فضلاً صاح لسانُ الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العمل؟.

وقال أحمد بن حنبل: وهل يرادُ بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟.

وقالت أم الدرداء لرجل: هل عَمِلْتَ بما عَلِمْتَ؟ قال: لا، قالت: فَلِمَ تستكثرُ من حجة الله عليك؟.

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لمن يعلم ولم يعمل مرةً، وويلٌ لمن عَلِمَ ولم يَعْمَلْ سبعين مرة.

وقال الفضيل: يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ واحد.

وجاء سفيان إلى رابعة[1]: فجلس بين يديها ينتفع بكلامها.

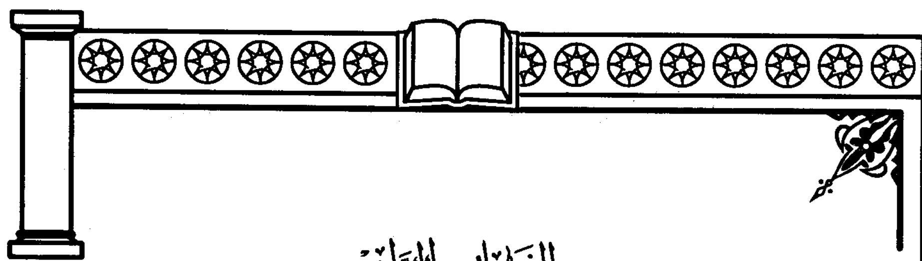
فدلَّ العلماءَ العلمُ على أن المقصود منه العمل به، وأنه آلة، فانكسروا، واعترفوا بالتقصير.

فحصل الكلُّ على الاعتراف والذلِّ، فاستخرجتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبودية باعترافهم، فذلك هو المقصود من التكليف[2].

* * *

(١) هي: رابعة العدوية بنت إسماعيل، أم الخير البصرية صالحة مشهورة لها أخبار في العبادة والنسك، توفيت سنة (١٣٥هـ). الأعلام (١٠/٣).

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٥).



الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي للعالم

- ١ -
صيانة العلم

رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء يستذلونهم بشيءٍ يسير يعطونهم من زكاة أموالهم؛ فإنْ كان لأحدهم ختمة قال: فلان ما حضر، وإن مرض قال: فلان ما تردَّد. وكلُّ منَّته عليه شيء نزر يجب تسليمه إلى مثله.

وقد رضي العلماء بالذلِّ في ذلك لموضع الضرورة؛ فرأيتُ أنَّ هذا جهلٌ من العلماء بما يجبُ عليهم مِنْ صِيانة العلم.

ودواؤه من جهتين:

أحدهما: القناعة باليسير؛ كما قيل: مَنْ رضي بالخَلِّ والبَقْلِ لم يستعبِدْه أحد.

والثاني: صرْفُ بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدُّنيا؛ فإنه يكون سبباً لإعزاز العلم، وذلك أفضلُ من صَرْف جميع الزمان في طلب العلم، مع احتمال هذا الذلّ.

ومن تأمل ما تأملته وكانتْ له أَنَفة قَدَّرَ قُوتَه، واحتفظ بما معه، أو سعى في مكتسب يكفُّه.

ومَنْ لم يأنفْ مِنْ مثل هذه الأشياء لم يحظَ من العلم إلا بصورته دون معناه(١).



- ٢ -
اجتهاد العالم في طلب الغنى

ليس في الدنيا أنفعُ للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإنَّه إذا ضُمَّ إلى العلم حيز الكمال.

وإنَّ جمهور العلماء شغَلهم العلمُ عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بدَّ منه، وقلَّ الصبر، فدخلوا مداخل شانتهم وإن تأوَّلوا فيها، إلا أنَّ غيرها كان أحسن لهم.

وما زال خَلَفٌ من العلماء والزُّهاد يعيشون في ظلِّ جماعة من المعروفين بالظُّلم، وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل، فإنَّهم فقدوا من قلوبهم، وكمال دينهم أكثرَ ممَّا نالوا من الدُّنيا.

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم. فمنهم من يُداهن ويُرائي، ومنهم من يمدح بما لا يجوز، ومنهم من يسكت عن منكر، إلى غير ذلك من المداهنات وسببُها الفقر.

فعلمنا أنَّ كمالَ العزِّ وبُعْدَ الرِّياء إنما يكون في البعد عن العمَّال الظلمة، ولم نر من صحَّ له هذا إلا في أحد رجلين:

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٥١).

إما مَنْ كان له مال كسعيد بن المسيّب كان يتَّجر في الزيت وغيره، وسفيانُ الثَّوري كانت له بضائع، وابنُ المبارك.

وإما مَنْ كان شديد الصَّبر قنوعاً بما رُزِق وإن لم يكفه كبِشْر الحافي، وأحمد بن حنبل.

ومتى لم يجد الإنسانُ كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلُّبه في المحن والآفات، وربما تِلف دينُه.

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك، فما رأينا في الأغلب منافقاً في التديُّن، والتزهُّد، والتخشُّع، ولا آفةً طرأت على عالم إلا بحبِّ الدُّنيا، وغالب ذلك الفقر.

فإنْ كان له مال يكفيه، ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدودٌ في أهل الشَّره، خارجٌ عن حيِّز العلماء، نعوذُ بالله من تلك الأحوال[1]!



وقد حضرنا بعض أغذية أرباب الأموال، فرأيتُ العلماءَ أذلَّ الناس عندهم؛ فالعلماء يتواضعون لهم، ويذِلُّون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفِلُون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم، فرأيتُ هذا عيباً في الفريقين.

أمَّا في أهل الدُّنيا فوجه العَتَبِ أنَّهم كانوا ينبغي لهم تعظيمُ العلم؛ ولكنْ لجهلهم بقدْرِه فاتهم، وآثروا عليه كسبَ الأموال؛ فلا ينبغي أن يُطلَب منهم تعظيمُ ما لا يعرفون ولا يعلمون قدْرَه.

وإنما أعود باللوم على العلماء، وأقول: ينبغي لكم أن تصونوا أنفسَكُم التي شرُفت بالعلم عن الذلِّ للأنذال، وإن كنتم في غنى عنهم كان الذلُّ لهم، والطلب منهم حراماً عليكم، وإن كنتم في كفاف فلِمَ لم تؤثروا التنزُّه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة.

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٠٩).

إلا أنه يتخيل لي من هذا الأمر، أنّي علمت قلة صبر النفس على الكَفاف، والعزوف عن الفضول، فإنْ وُجِدَ ذلك منها في وقتٍ لم يوجد على الدوام.

فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغِنى، ويبالغَ في الكسب، وإن ضاع بذلك عليه كثيرٌ من زمان طلب العلم؛ فإنَّه يصون بعَرَضه عِرْضَه.

وقد سبق في كتابي هذا في بعض الفصول شرُف المال، ومن كان من الصَّحابة والعلماء يقتنيه؛ والسرُّ في فعلهم ذلك.

وحثّي طالبي العلم على ذلك ما بينته من أنَّ النفس لا تثبت على التعفُّف، ولا تصبر على دوام التزهُّد.

فالأولى ادخارُ المال، والاستغناءُ عن الناس، ويخرجُ الطَّمع من القلب، ويصفو نشرُ العلم من شائبة ميل.

ومن تأمَّل أخبار الأخيار من الأحبار وجدهم على هذه الطريقة.

وإنما سلك طريق الترفُّه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدّين والوجه، فطلبَ الراحة، ونسيَ أنَّها في المعنى عَناء؛ كما فعل جماعةٌ من جهَّال المتصوفة في إخراج ما في أيديهم وادِّعاء التوكُّل، وما علموا أنَّ الكسب لا ينافي التوكُّل، وإنما طلبوا طريق الراحة، وجعلوا التعرُّض للناس كسباً.

وهذه طريقةٌ مركَّبة من شيئين:

أحدُهما: قلةُ الأنَفَةِ على العرض.

والثاني: قلةُ العلم(١).



(١) جاء هذا في الفصل (١٤٩).

- ٣ -
الآثار المترتبة على حاجة العالم

رأيتُ جماعةً ممن أفنى أوائلَ عمره وريعان شبابه في طلب العلم يصبر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحات أنفة من الجهل ورذيلته، وطلباً للعلم وفضيلته.

فلما نال منه طرفاً، رفعه عن مراتب أرباب الدُّنيا.

ومَنْ لا علم له إلا بالعاجل ضاق به معاشه، فسافر البلاد يطلبُ من الأراذل، ويتواضع للسَّفَلة وأهل الدناءة والمُكّاسِ وغيرهم.

فخاطبتُ بعضهم وقلت: ويحكَ! أين تلك الأنفةُ من الجهل التي سهرت لأجلها، وأظمأت نهارك بسببها؟ فلما ارتفعْتَ وانتفعْتَ عُدْتَ إلى أسفل سافلين. أفما بقي عندك ذَرَّةٌ من الأنفة تنبو بها عن مقامات الأراذل؟ ولا معك يسير من العلم يسير بك عن مناخ الهوى؟ ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مراعي السُّوء؛ غير أنه يبين لي أنَّ سهرَك وتعبَك كأنْ كان لنيل الدُّنيا.

ثم إنِّي أراك تزعُم أنَّك تريد شيئاً من الدنيا تستعين به على طلب العلم. فاعلمْ أنَّ التفاتَك إلى نوعٍ كسبٍ تستغني به عن الأراذل أفضلُ من التزيُّد في علمك.

فلو عرفت ما ينقُص به دينك لم تر في ما قد عزمت عليه زيادة، بل لعله كلُّه مخاطرةٌ بالنفس، وبذل الوجه الذي طالما صِيْنَ لمن لا يصلُح التفات مثلك إلى مثله.

وبعيد أن تقنع بعد شروعك في هذا الأمر بقدْرِ الكفاف، وقد علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الإثم.

وأبعد منه أن تقدِر على الورع في المأخوذ.

ومن لك بالسَّلامة والرجوع إلى الوطن؟ وكم رمى فقرٌ في بواديه من هالك.

ثم ما تحصِّله يفنى، ويبقى منه ما أعطى، وعيبُ المتَّقين إيَّاك، واقتداءُ الجاهلين بك.

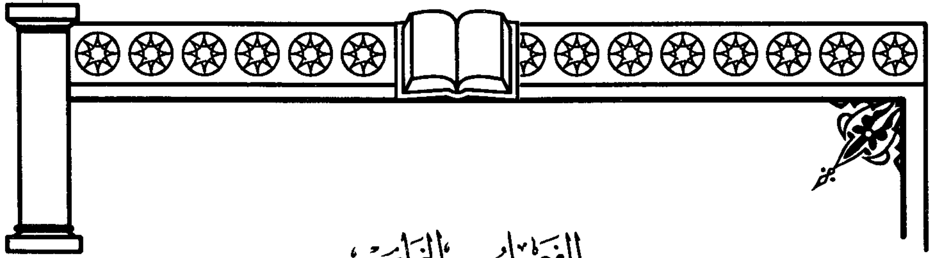
ويكفيك أنك عُذت على ما علِمت من ذمِّ الدُّنيا بشَيْنِه؛ إذ فعلت ما يناقِضه، خصوصاً وقد مرَّ أكثر العمر.

ومن أحْسَنَ فيما مضى يُحْسِن فيما بقي[1].

* * *

---

(١) جاء هذا في الفصل (١١٣).



الفصل الخامس

علماء الدنيا

- ١ -
علماء الدنيا وعلماء الآخرة

تأمَّلت التَّحاسُد بين العلماء، فرأيتُ منشأه من حبِّ الدنيا[١]، فإنَّ علماء الآخرة يتوادُّون ولا يتحاسدون، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان أبو الدرداء يدعو كلَّ ليلةٍ لجماعة من إخوانه.

وقال الإمام أحمدُ بنُ حنبل لولد الشَّافعي: أبوكَ من الستة الذين أدعو لهم كلَّ ليلةٍ وقت السَّحر.

والأمر الفارقُ بين الفئتين:

أنَّ علماء الدنيا، ينظرون في الرياسة فيها، ويُحِبُّون كثرة الجمع والثناء.

---

(١) ليس هذا على إطلاقه، فقد يكون بعض الخلاف بينهم لله وفي الله تعالى والواقع المشاهد يؤكد ذلك.

وعلماءَ الآخرة بمعزلٍ من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوَّفونه، ويرحمون من بُلِيَ به.

وقال علقمة[1]: أكره أن يوطأ عقبي، ويقال: علقمة، وكان بعضهم: إذا جلس إليه أكثر من أربعةٍ قام عنهم، وكانوا يتدافعون الفتوى، ويحبون الخمول[2].

ومَثَلُ القوم كمَثل راكب البحر، وقد خبَّ[3]، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة.

وإنما كان بعضهم يدعو لبعض، ويستفيدُ منه؛ لأنهم رَكْبٌ تصاحبوا فتوادُّوا، فالأيام والليالي مراحلُهم إلى سفر الجنة[4].



- ٢ -
علماء التأويلات الفاسدة

قدم علينا بعض الفقهاء من بلاد الأعاجم، وكان قاضياً ببلده، فرأيت على دابته الذَّهب ومعه أتوار الفضة، وأشياءُ كثيرةٌ من المحرَّمات!.

فقلت: أيُّ شيء أفاد هذا العلم؟! بل والله قد كثرت عليه الحجج!.

وأكبر الأسباب قلةُ علم هؤلاء بسيرة السَّلف، وما كان عليه

(١) هو: عَلْقَمة بن قيس النخعي، أبو شبل: تابعي، كان فقيه العراق. وُلد في حياة النبي ﷺ، وروى الحديث عن الصحابة. شهد صفين، وغزا خراسان. توفي سنة (٦٢هـ). الأعلام (٤/٢٤٨).

(٢) «الخمول»: خَمَل ذِكْرُ الرجل: خفي فلم يُعْرَف ولم يُذْكَرْ. والمراد: عكس الشهرة.

(٣) «خب»: اضطرب.

(٤) جاء هذا في الفصل (١١).

رسول الله ﷺ؛ إلا أنَّهم يجهلون الجملة، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدُّم، ولا يقصدون سماع حديث ولا نظراً في سِيَرِ السَّلف.

ويخالطون السلاطين، فيحتاجون إلى التزيِّي بزِيِّهم، فربما خطَر لهم أنَّ هذا قريب، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالبٌ بلا صادّ، وربما خطر لهم أنَّ هذا يحتمل، ويغفر في جانب تشاغلنا بالعلم.

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم.

ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم مَنْ يستصحب المُردان، ويشتري المماليك، وما كان من يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة.

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالة.

فاللَّهَ اللَّهَ يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة! إيَّاك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالية، فإنَّك إن ترخصت بالدخول في بعضها جرَّك الأمرُ إلى الباقي، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى.

فاقبلْ نصحي، واقنعْ بالكِسْرة، وابعدْ عن أرباب الدُّنيا، فإذا ضجَّ الهوى فدعه لهذا، وربما قال لك: فالأمر الفلاني قريب، فلا تفعل، فإنه يدعو إلى غيره ويصعُب التلافي.

فالصبرَ الصبرَ على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى! فما يتمُّ دين إلا بذلك، ومتى وقع التَّرخيص حمل إلى غيره، كالشاطيء إلى اللُّجَّة، وإنما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، ووجهٌ أصبحُ مِنْ وجه، وإنَّما هي أيام يسيرة[1].



(١) جاء هذا في الفصل (٢٧٠).

- ٣ -
علماء الدنيا والسلطان

بقدر صُعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة[١]، وقد صرَّح بهذا ابنُ عمر رضي الله عنهما، فقال: والله لا ينال أحدٌ من الدُّنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عنده كريماً. فالسعيد من اقتنع بالبُلغة[٢]، فإنَّ الزمان أشرفُ من أن يضيع في طلب الدنيا. اللهمَّ إلا أن يكون متورعاً في كسبه، معيناً لنفسه عن الطمع، قاصداً إعانة أهل الخير، والصدقة على المحتاجين، فكَسْبُ هذا أصلحُ من بطالته.

فأمَّا الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيدٌ أن يسلم معه الدِّين، فإن وقع سلامته ظاهراً؛ فالعاقبة خطرة في الدنيا والآخرة.

قال أبو محمد التميمي: ما غبَطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائمُ بأمر الله[٣]، فإنه غسَّله، وخرج ينفض أكمامه، فقعد في مسجده لا يبالي بأحد، ونحن منزعجون لا ندري ما يجري علينا، وذاك أنَّ التميمي كان متعلقاً على السلطان يمضي له في الرسائل، فخاف مغبة[٤] القرب.

وقد رأينا جماعةً من العلماء خالطوا السُّلطان، فكانت مغبَّتُهم سيئة، ولعمري إنهم طلبوا الراحة، فأخطأوا طريقها! لأنَّ غموم القلب لا يوازيها لذةُ مال، ولا لذةُ مطعم، هذا في الدنيا قبل الآخرة.

ومَنْ أشرفُ وأطيبُ عيشاً من منفرد في زاوية لا يخالط السلاطين؟! ولا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب، فإنه لا يخلو من كِسْرةٍ، وقَعْبِ ماء،

---

(١) هذا الكلام لا يصح على إطلاقه وتعميمه.

(٢) «البلغة»: ما يُتبلغ به من العيش، أي: اكتفى به.

(٣) هو: عبدالله بن أحمد، أبو جعفر: خليفة من العباسيين في العراق. ولي الخلافة سنة (٤٢٢هـ). وكان ورعاً، عادلاً، له فضل، وعناية بالأدب والإنشاء. توفي سنة (٤٦٧هـ). الأعلام (٤/٦٦).

(٤) «مغبَّة»: عاقبة.

وهو سليم من أن يُقال له كلمةٌ تؤذيه، أو يعيبه الشَّرع حين دخوله عليهم، أو الخَلْق.

ومن تأمَّل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه، وحالَ ابنِ أبي داود[(١)]، ويحيى بن أكثم عرف الفرق في طيب العيش في الدُّنيا والسلامة في الآخرة.

وما أحسن ما قال ابن أدهم: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسُّيوف[(٢)].

ولقد صدق ابن أدهم، فإن السلطان إن أكل شيئاً؛ خاف أن يكون قد طُرِح له فيه سُمّ، وإن نام؛ خاف أن يُغتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة، فإن خرج؛ كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه، واللذة التي ينالها تبرد عنده، ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح، وكلَّما استظرف المطاعم، أكثر منها ففسدت معدتُه، وكلَّما استجدَّ الجواري أكثر منهنَّ ذهبت قوَّتُه، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء، فلا يجد في الوطء كبير لذة؛ لأنَّ لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين، وكذلك لذةُ الأكل، فإنَّ من أكل على شبع، ووطىء من غير صدق شهوة وقلق؛ لم يجد اللذة التامَّة التي يجدها الفقير إذا جاع، والعَزَبُ إذا وجد امرأة.

ثم إنَّ الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل، فينام. ولذةُ الأمن قد حُرِمها الأمراء؛ فلذَّتهم ناقصة، وحسابُهم زائد.

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين، كالحسن، وسفيان، وأحمد! والعبّاد المحققين، كمعروف، فإنَّ لذَّة العلم تزيد على كل لذة.

وما ضرَّهم إذا جاعوا، أو ابتلوا بأذى، فإنَّ ذلك يزيد في رفعتهم،

---

(١) هو: أحمد بن أبي دؤاد بن جرير، أبو عبدالله: أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن. توفي سنة (٢٤٠هـ). الأعلام (١/١٢٤).

(٢) حلية الأولياء (٧/٣٧١).

وكذلك لذة الخلوة والتعبُّد؛ فهذا معروف، كان منفرداً بربه طيب العيش معه، لذيذ الخلوة به، ثم قد مات منذ نحو أربعمئة سنة، فما يخلو أن يهدَى إليه كل يوم ما تقدير مجموعه أجزاء من القرآن، وأقلُّه من يقف على قبره، فيقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، ويهديها له. والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة، هذا بعد الموت، ويوم الحشر تنشر الكرامات التي لا توصف، وكذلك قبورُ العلماء المحققين.

ولما بُليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير في أحوالهم كلِّها، فقال سفيان بن عيينة: منذ أخذت من مال فلانٍ الأمير منعت ما كان وُهب لي من فهم القرآن!.

فالصَّبر عن مخالطة الأمراء ـ وإن أوجب ضيق العيش من وجه ـ يحصل طيب العيش من جهات، ومع التخليط لا يحصل مقصود؛ فمَنْ عزم جزم.

كان أبو الحسن القزويني لا يخرج من بيته إلا وقت الصلاة، فربَّما جاء السلطان، فيقعد لانتظاره ليسلم عليه.

ومدُّ النَّفَس في هذا ربما أضجر السامع. ومَن ذاق عرف[1].

❋ ❋ ❋

ـ ٤ ـ
ضرر مخالطة العلماء للسلاطين

رأيت خلقاً من العلماء والقُصّاص تضيق عليهم الدُّنيا، فيفزعون إلى مخالطة السلاطين، لينالوا من أموالهم.

وهم يعلمون أنَّ السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها، ولا

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٠٧).

يخرجونها في حقِّها؛ فإنَّ أكثرهم إذا حصل له خراجٌ ينبغي أن يُصرَف إلى المصالح، وهبه لشاعر. وربما كان معه جندي يصلُح أن تكون مشاهرتُه عشرةَ دنانير، فأعطاه عشرةَ آلاف، وربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش، فاصطفاه لنفسه، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات.

وأولُ ما يجري على ذاك العالم أنَّه قد حُرِم النفعَ بعلمه.

وقد رأى بعضُ الصَّالحين رجلاً عالماً يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي[1]، فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع، ألم تر المنكرات ولا تنكر، وتتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصُل إلا بظلم، فينطمسُ قلبك، وتحرم لذَّة المعاملة للحقِّ سبحانه، ولا يقدر لك أن يهتدِّي بك أحد، بل ربما كان فعل هذا سبباً لإضلال الناس في الاقتداء به.

فهو يؤذي نفسه، ويؤذي أميره، لأنه يقول: لولا أنني على صواب ما صحبني، ولأنكر عليّ.

ويؤذي العوامَّ تارةً بأن يروا أنَّ ما فيه الأميرُ صواب، وأنَّ الدخول والسكوت عن الإنكار جائز، ويحبِّبُ إليهم الدنيا، ولا خير والله في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة.

وأنا أفدي أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرِّضا، وبقيت أذكارهم تروَى، فتروِي صدأ القلوب، وتجلو صداها.

هذا الإمام أحمد يحتاجُ، فيخرج إلى اللقاط[2]، ولا يقبل مال السُّلطان.

---

(١) هو: يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل: الوزير السري الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم. وهو مؤدِّب الرشيد العباسي، ومعلمه، ومربيه. رضع الرشيد من زوجته، وكان يدعوه: يا أبي. اشتهر بجوده وحُسن سياسته. توفي سنة (١٩٠هـ). الأعلام (١٤٤/٨).

(٢) اللقاط: هو جمع السنابل التي أخطأتها المناجل.

وهذا إبراهيم الحربي يتغذَّى بالبقل، ويردُّ على المعتضد ألف دينار.

بقيت والله أذكارُ القوم، وما كان الصبر إلا غفوة نوم، ومضت لذاتُ المترخِّصين، وبليت الأبدان، ووهَن الدِّين.

فالصبرَ الصبرَ يا من وفق! ولا تغبطنَّ من اتسع له أمر الدنيا، فإنك إذا تأملت تلك السَّعَة؛ رأيتها ضيقاً في باب الدِّين، ولا ترخصْ لنفسك في تأويل، فعمرُك في الدنيا قليل.

ومتى ضجَّت النفس لقلة صبر؛ فاتلُ عليها أخبار الزُّهاد، فإنها ترعوي[١]، وتستحي، وتنكسر إن كانت لها همَّة، أو فيها يقظة[٢].

* * *

(١) ترعوي: تكف وترجع.

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٩٤).



الفصل السادس

آداب العالِم

- ١ -
العلم المطلوب

رأيت جماعةً من العلماء يتفسحون[١]، ويظنُّون: أن العلم يدفع عنهم، وما يدرون أنَّ العلم خصمهم، وأنه يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب، وذاك لأنَّ الجاهل لم يتعرَّض بالحق، والعالم لم يتأدب معه.

ورأيت بعض القوم يقول: أنا قد ألقيت منجلي بين الحصَّادين، ونمت. ثم كان يتفسح في أشياء لا تجوز.

فتفكَّرت، فإذا العلم الذي هو معرفةُ الحقائق، والنظرُ في سِيَرِ القدماء، والتأدُّب بآداب القوم، ومعرفةُ الحقِّ وما يجب له ليس عند القوم.

إنما عندهم صُورُ ألفاظٍ يعرِفون بها ما يحلُّ وما يحرم، وليس كذلك العلم النافع.

إنَّما العلم فهمُ الأصول[٢]، ومعرفةُ المعبود، وعظمته، وما يستحقه،

(١) «يتفسحون»: يتوسَّعون في أمرهم، ويترخَّصون.

(٢) المقصود بالأصول: أمر العقيدة.

والنَّظرُ في سِيَرِ الرسول ﷺ وصحابته، والتأدُّبُ بآدابهم، وفهمُ ما نقل عنهم، هو العلم النافع الذي يَدَعُ أعظم العلماء أحقرَ عند نفسه من أجهل الجُهَّال.

ورأيت بعض من تعبَّد مدةً، ثم فتر، فبلغني أنه قال: قد عبدته عبادةً ما عبده بها أحد، والآن قد ضَعُفْتُ!.

فقلت: ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لردِّ الكل؛ لأنه قد رأى أنَّه عمل مع الحق شيئاً، وإنما وقف يسأل النَّجاة بطلب الدرجات، ففي حق نفسه فعل.

وما مَثَلُهُ إلا كَمَثَلِ مَنْ وقف يُكدِي[1]، فلا ينبغي أن يمنَّ على المعطي.

وإنَّما سبب هذا الانبساط الجهلُ بالحقائق، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثلُ صلة بن أشيم[2]، إذا رآه السبع هرب منه، وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته: يا ربِّ أجرني من النار! أو مثلي يسأل الجنة؟!.

وأبلغ من ذا قولُ عمر: وددت أن أنجوَ كفافاً لا لي ولا عليَّ!.

وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة: أترجو لمثلي أن ينجو من النار؟!.

فأنا أحمد الله عزَّ وجلَّ أن تخلصت من جهل المتسمِّين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم، وبالزُّهد من هؤلاء الذين عِبْتُهم؛ فإني قد اطلعت من عظمة الخالق وسيرِ المحققين على ما يُخرِس لسان الانبساط، ويمحو النظر إلى كلِّ فعل.

---

(١) «يكدي»: أكدى السائل: ألحَّ في المسألة.

(٢) هو: صِلة بن أشيَم، أبو الصهباء، العدوي، البصري: عابد، زاهد، زوج العالمة معاذة العدوية. توفي سنة (٦٢هـ). حلية الأولياء (٢/٢٤٠).

وكيف. أنظر إلى فعلي المستحسن؟! وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ما خفِي عن غيري، فهل حصل ذلك بي إلا بلطفه؟ وكيف أشكر توفيقي للشكر؟.

ثم أيُّ عالم إذا سَبَرَ أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه؟! هذا في صورة العلم، فدع معناه.

وأيُّ عابد يسمع بالعبّاد ولا يجري في صورة التعبد؟ فدع المعنى.

نسأل الله عزَّ وجلَّ معرفة تعرِّفنا أقدارنا؛ حتى لا يبقى للعُجْب بمحتقرِ ما عندنا أثرٌ في قلوبنا، ونرغب إليه في معرفة لعظمته تُخْرِس الألسن أن تنطق بالإدلال، ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الأعمال التي بها نزهو؛ حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها. إنه قريب مجيب[1].



- ٢ -
غفلات العلماء

أعظمُ المعاقبة ألاَّ يحسَّ المعاقَبُ بالعقوبة، وأشدُّ من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكُّن من الذنوب، وَمَنْ هذه حاله لا يفوز بطاعة.

وإنِّي تدبَّرت أحوال أكثر العلماء والمتزهِّدين، فرأيتهم في عقوباتٍ لا يحسُّون بها، ومعظمها مِنْ قِبَل طلبهم للرياسة.

فالعالمُ منهم يغضبُ إن رُدَّ عليه خطؤه، والواعظُ متصنعٌ بوعظه، والمتزهِّدُ منافق، أو مُراءٍ.

(١) جاء هذا في الفصل (٢٣٠).

فأولُ عقوباتهم إعراضُهم عن الحقِّ شغلاً بالخلق.

ومن خفيِّ عقوباتهم سلبُ حلاوة المناجاة ولذة التعبد إلا رجالاً مؤمنين، ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنُهم كظواهرهم، بل أجلى، وسرائرُهم كعلانيتهم، بل أحلى، وهممُهم عند الثريَّا، بل أعلى. إن عُرِفوا تنكّروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم[1]، تحبُّهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاكُ السَّماء.

نسأل الله عزَّ وجلَّ التوفيق لاتِّباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم[2].

* * *

- ٣ -
المحافظة على مكانة العلم

ما أعرف للعالم قطُّ لذةً، ولا عزّاً، ولا شرفاً، ولا راحةً، ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنه ينال بها سلامة بدنه، ودينه، وجاهه عند الله عزَّ وجلَّ، وعند الخلق، لأنَّ الخلق يهون عليهم مَنْ يخالطهم، ولا يعظُمُ عندهم قول المخالط لهم، ولهذا عظُمَ قدْر الخلفاء لاحتجابهم[3].

وإذا رأى العوامُّ أحد العلماء مترخصاً في أمر مباح هان عندهم.

فالواجب عليه صيانةُ علمه، وإقامةُ قَدْرِ العلم عندهم؛ فقد قال بعض السلف: كنا نمزح ونضحك، فإذا صِرْنا يقتدى بنا، فما أراه يسعنا ذلك.

---

(١) فلاتهم: الفلاة: القفر من الأرض، والصحراء.

(٢) جاء هذا في الفصل (٦).

(٣) يتحدث المؤلف هنا عن الخلفاء في زمانه، أما الخلفاء الراشدون ومن كان على طريقتهم فقد كانت أبوابهم مفتوحة، وكانوا أعلى مكانة وأعظم قدراً بإتباعهم السنة وتأسيهم برسول الله ﷺ.

وقال سفيان الثوري: تعلَّموا هذا العلم، واكظِموا عليه، ولا تخلِطوه بهزل، فتمجَّه القلوب، فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر.

وقد قال ﷺ لعائشة: **«لولا حِدْثانُ قومِك بالكُفرِ لنقضتُ الكعبة وجعلْتُ لها بابين»**[1].

وقال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتُها؛ ولا تسمعْ من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياءً؛ إنما هذه صيانةٌ للعلم.

وبيان هذا أنَّه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس، أو في يده كِسْرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحاً.

فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوامِّ حفظاً لهم، ومتى أراد مباحاً فليستتر به عنهم، فإن الإنسان يخلو في بيته، فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين، وعمامةً، ورداءً، ومثل هذا لا يكون تصنعاً، ولا ينسب إلى كِبْر. وقد كان مالك بن أنس يغتسل، ويتطيَّب، ويقعد للحديث.

ولا تلتفتْ يا هذا إلى ما ترى من ذلِّ العلماء على أبواب السلاطين! فإنَّ العُزلة أصونُ للعالم والعلم، وما يخسرُه العلماء في ذلك أضعافُ ما يربحونه.

وقد كان سيِّد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة، وهذا فعل الحازم.

فإنْ أردتَ اللذة والراحة؛ فعليك أيها العالم بقعر بيتك! وكن معتزلاً عن أهلك يطبْ لك عيشُك، واجعلْ للقاء الأهل وقتاً، فإذا عرفوه؛ تصنَّعوا للقائك؛ فكانت المعاشرة بذلك أجود.

وليكنْ لك بيتٌ في بيتك تخلو فيه، وتحادثُ سطور كتبك، وتجري في حَلبات فكرك، واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام.

---

(١) رواه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

واجتهد في كسبٍ يعفُّك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم في الدُّنيا.

وقد قيل لابن المبارك: ما لك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه[١].

ومتى رُزِقَ العالمُ الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهم يجلب التصانيف؛ فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهماً يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته؛ فقد تعجَّل دخول الجنة قبل الممات.

نسأل الله عزَّ وجلَّ همة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالح الأعمال! فالسالكون طريق الحق أفراد[٢].

***

- ٤ -
التواضع والخشية

إذا تمَّ علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً، وإنما يرى إنعام الموفِّق لذلك العمل؛ ويجب على العاقل أن لا يرى لنفسه عملاً، أو يعجب به، وذلك بأشياء:

منها: أنه وفِّق لذلك العمل ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنها: أنَّه إذا قيس بالنِّعم؛ لم يف بمعشار عشرها.

ومنها: أنَّه إذا لُوحظتْ عظمةُ المخدوم احتقر كلَّ عمل وتعبُّد. هذا إذا سلم من شائبة، وخلَص من غفلة.

فأمَّا والغفلات تحيط به؛ فينبغي أن يغلِب الحذَر من ردِّه، ويخافَ العتابَ على التقصير فيه، فيشتغل عن النظر إليه.

---

(١) حلية الأولياء (٨/١٦٤).

(٢) جاء هذا في الفصل (١٦٧).

وتأمَّل على الفطناء أحوالهم في ذلك، فالملائكةُ الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون قالوا: ما عبدناك حق عبادتك!.

والخليل عليه السلام يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدلَّ بتصبُّرِه على النَّار، وتسليمِه الولد إلى الذَّبح.

ورسول الله ﷺ يقول: «**ما منكم من ينجيه عمله**»، قالوا: ولا أنت؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته**»[١].

وأبو بكر رضي الله عنه يقول: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله[٢]؟!.

وعمر رضي الله عنه يقول: لو أن لي طلاع الأرض؛ لافتديت بها من هَوْل ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر[٣].

وابنُ مسعود يقول: ليتني إذا مت لا أبعث[٤].

وعائشة رضي الله عنها تقول: ليتني كنت نسياً منسياً[٥].

وهذا شأن جميع العقلاء، فرضي الله عن الجميع.

وقد روي عن قوم من صلحاء بني إسرائيل ما يدلُّ على قلة الأفهام لما شرحته؛ لأنهم نظروا إلى أعمالهم، فأدلوا بها؛ فمنه حديث العابد الذي تعبَّد خمسمئة سنة في جزيرة، وأُخْرِج له كلَّ ليلة رمانة، وسأل الله تعالى أن يميته في سجوده، فإذا حُشِرَ؛ قيل له: ادخل الجنة برحمتي! قال: بل بعملي! فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفي، فيقول: يا رب برحمتك[٦]!.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٣) رواه البخاري (٣٦٩٢).
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٣٣).
(٥) الزهد لأحمد (ص ٢٠٦).
(٦) رواه الحاكم (٤/٢٥٠).

ولولا عزّة الفهم ما تكبّر متكبّرٌ على جنسه، ولكان كلُّ كامل خائفاً محتقراً لعمله، حذراً من التقصير في شكر ما أنعم عليه.

وفهم هذا المشروح ينكّسُ رأس الكِبْر، ويوجبُ مساكنة الذلّ؛ فتأمله، فإنّه أصلٌ عظيم[1].

* * *

- ٥ -
قول العالم: لا أدري

إذا صحَّ قصد العالم استراح مِنْ كُلَف التكليف؛ فإنّ كثيراً من العلماء يأنفون من قول: لا أدري، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال: جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين ممّا قالوا، وهذا نهاية الخذلان.

وقد روي عن مالك بن أنس: أنّ رجلاً سأله عن مسألة، فقال: لا أدري! فقال: سافرت البلدان إليك! فقال: ارجع إلى بلدك، وقل: سألت مالكاً، فقال: لا أدري.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكُلْفة، وسلِم عند الله عزَّ وجلَّ. ثم إن كان المقصود الجاهَ عندهم، فقلوبُهم بيد غيرهم[2].

والله لقد رأيت من يُكْثِر الصَّلاةَ والصَّوم، والصَّمت، ويتخشع في نفسه ولباسه والقلوبُ تنبو عنه! وقدْرُه في النفوس ليس بذاك.

ورأيتُ من يلبسَ فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشُّع، والقلوب تتهافت على محبته.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٨٩).

(٢) أي بيد الله تعالى.

فتدبَّرت السبب فوجدته السريرة.

كما روي عن أنس بن مالك: أنَّه لم يكن له كبير عمل من صلاةٍ، وصومٍ، وإنما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرته؛ فاح عبير فضله، وعبقت القلوبُ بنشر طيبه. فاللّهَ اللّه في السرائر! فإنه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهر[1].



- ٦ -
آفة الكبر

انتقدت أكثر العلماء والزُّهاد أنهم يبطنون الكِبْر.

فهذا ينظر في موضعه، وارتفاع غيره عليه، وهذا لا يعود مريضاً فقيراً يرى نفسه خيراً منه.

حتى إني رأيت جماعة يوماً إليهم، منهم من يقول: لا أدفن إلا في دِكَّة أحمد بن حنبل، ويعلم أن في ذلك كسر عظام الموتى، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدُّر.

ومنهم من يقول: ادفنوني إلى جانب مسجدي، ظناً منه أنه يصير بعد موته مزوراً كمعروف الكرخي، وهذه خُلَّة[2] مهلكة. وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه.

والعجبُ كلّ العجب ممن يرى نفسه، أتراه بماذا رآها؟.

إن كان بالعلم؛ فقد سبقه العلماء، وإن كان بالتعبد؛ فقد سبقه العبَّاد، أو بالمال فإن المال؛ لا يوجب بنفسه فضيلةً دينية.

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٤٧).

(٢) «خلة»: خصلة.

فإن قال: قد عرفت ما لم يعرف غيري من الغلم في زمني، فما عليَّ ممَّن تقدم.

قيل له: ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النِّصف، ولا يا فقيهُ أن ترى نفسك في العلم كالعاميِّ، إنما نَحْذَرُ عليك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشَّخص المؤمن وإن قلَّ عملُه، فإنَّ الخيرية بالمعاني، لا بصُور العلمِ والعبادة.

ومن تلمَّح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك. فالذي يُحذَر منه الإعجابُ بالنفس، ورؤيةُ التقدُّم في أحوال الآخرة. والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه.

وقد قيل لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: إنْ مِتَّ ندفنك في حُجْرة رسول الله ﷺ، فقال: لأن ألقى الله بكلِّ ذنب غير الشرك أحبُّ إلـيَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك[1].

وقد روينا: أنَّ رجلاً من الرُّهبان رأى في المنام قائلاً يقول له: فلانٌ الإسكافي خيرٌ منك، فنزل من صومعته، فجاء إليه، فسأله عن عمله، فلم يذكر كبير عمل، فقيل له في المنام: عُدْ إليه، وقل له: ممّ صفرةُ وجهك؟ فعاد فسأله فقال: ما رأيت مسلماً إلا وظننته خيراً مني؛ فقيل له: فبذاك ارتفع[2].

* * *

- ٧ -
آفة الغرور

أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنَّه مَنِ اقتصر على ما يعلمُه، فظنَّه كافياً استبدَّ برأيه، وصار تعظيمُه لنفسه مانعاً له من الاستفادة، والمذاكرة تبين

(١) حلية الأولياء (٥/٣٣٥).
(٢) جاء هذا في الفصل (٢٠٣).

له أخطاءه، وربما كان مُعظَّماً في النفوس، فلم يُتَجاسر على الردِّ عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة لأهدِيَتْ إليه مساويه، فعاد عنها.

ومن هذا الفنِّ أبو بكر بن مقسم[1]: فإنَّه عمِل كتاب «الاحتجاج» للقراء، فأتى فيه بفوائد، إلا أنه أفسد علمَه بإجازته أن يُقرأ بما لم يُقرأ به، ثم تفاقم ذلك منه حتى أجاز ما يفسد المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: يصلح أن يقال هنا نجياً، أي خلصوا كراماً بُرآء من السرقة.

وهذا سوءُ فهم للقصة، فإنَّ الذي نُسِب إلى السَّرقة فظهرت معه؛ ما خلص، فما الذي ينفع خلاصُهم.

وإنما سيقت القصة ليبين: أنهم انفردوا، وتشاوروا فيما يصنعون، وكيف يرجعون إلى أبيهم وقد احتبس أخوهم، فأيُّ وجهٍ للنجاة ها هنا؟!.

ومن تأمَّل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الإحصاء أكثر من هذا الفنِّ القبيح، ولو أنه أصغى إلى علماء وقته، وترك تعظيمَ نفسه؛ لبان له الصواب، غير أنَّ اقتصارَ الرجل على علمه إذا مازجه نوعُ رؤيةٍ للنفس حبس من إدراك الصَّواب، نعوذ بالله من ذلك[2]!.



- ٨ -
زهد ورياء؟!

رأيت في زهَّاد زماننا من الكِبْر وحفظ الناموس ورتبة الجاه في قلوب العامَّة ما كدت أقطع به على أنَّهم أهلُ رِياء ونفاق.

---

(١) هو: محمد بن الحسن العطار: عالم بالقراءات والعربية، من أهل بغداد. توفي سنة (٣٥٤هـ). الأعلام (٨١/٦).

(٢) جاء هذا في الفصل (٦٩).

فترى أحدَهم يلبسَ الثوب الذي يرى بعين الزُّهد، ويأكل أطايب الطعام، ويتكبَّر على أبناء الجنس، ويصادق الأغنياء، ويباعد الفقراء، ويحبُّ الخطاب بـ «مولانا»، ويضيع الزمان في الهذيان، ويتقوَّت بخدمة الناس له، والتسليم عليه. ولو أنه لبس ثوباً يخلطه بالفقهاء لذهب الجاه، ولم يبق له متعلق، ولو أنَّ أفعاله ناسبت ثيابه؛ لهان الأمر، لكنهم بهرجوا على من لا يخفى عليه مِنْ الخلق، فكيف الخالق سبحانه وتعالى[1]؟!.



وتأمَّلت على متزهدي زماننا أشياءَ تدلُّ على النفاق، والرياء، وهم يدَّعون الإخلاص.

منها: أنهم يلزمون زاويةً، فلا يزورون صديقاً، ولا يعودون مريضاً، ويدَّعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالاً بالعبادة، وإنما هي إقامة نواميس؛ ليشار إليهم بالانقطاع؛ إذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتُهم.

وما كان الناس كذلك.

كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشتري الحاجة من السُّوق. وأبو بكر رضي الله عنه يتَّجر في البزّ. وأبو عبيدة بن الجراح يحفر القبور. وأبو طلحة أيضاً. وابنُ سيرين يغسل الموتى، وما كان عند القوم إقامةُ ناموس.

وأصحابنا يلزمون الصَّمت بين الناس، والتخشُّع، والتماوت، وهذا هو النفاق.

فقد كان ابن سيرين يضحك بالنَّهار وبين الناس، ويبكي بالليل.

وقد رأيت من المتزهِّدين من يلزم المسجد، ويصلِّي، فيجتمع الناس، فيصلُّون بصلاته ليلاً ونهاراً، وقد شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحبِّ المحمدة، والنبيّ ﷺ قال في صلاة التطوع: **«اجعلوا هذه في البيوت»**[2].

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

وفي أصحابنا من يُظهِر الصَّوم الدائم، ويتقوَّت بقول الناس: فلانٌ ما يُفطِر أصلاً! وهذا الأبله ما يدري أنَّه لأجل الناس يفعل ذلك، ولولا هذا كان يفطر والناس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود إلى الصَّوم.

وقد كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يترك عنده من الطعام ما يأكله الأصحاء.

ورأيت في زُهَّادنا مَنْ يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوَّذتين، والمعنى: قد ختمت. فإنَّ هذه الأعمال هي صريحة في النفاق والرياء.

وفيهم مَنْ يأخذ الصدقات وهو غني، ولا يبالي أخذ من الظلمة أو من أهل الخير، ويمشي إلى الأمراء يسألهم، وهو يدري من أين حصلت أموالهم.

فاللَّهَ اللَّهَ في إصلاح النيات! فإنَّ جمهور هذه الأعمال مردودة.

قال مالك بن دينار: وقولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعنَّى[1] وليعلم المرائي أنَّ الذي يقصده يفوته، وهو التفات القلوب إليه؛ فإنَّه متى لم يُخلص حُرِم محبَّة القلوب، ولم يُلتفَتْ إليه، والمخلص محبوب.

فلو علم المرائي أنَّ قلوب الذين يرايهم بيد من يعصيه؛ لما فعل، وكم مَنْ قد رأينا من يلبس الصُّوف، ويظهر النُّسك؛ لا يُلتَفَتْ إليه، وآخرُ يلبَس جيد الثياب، ويبتسم، والقلوب تحبُّه.

نسأل الله عزَّ وجلَّ إخلاصاً يخلِّصنا! ونستعيذ به من رياء يُبطِل أعمالنا! إنه قادر[2].



(١) «لا يتعنى»: أي لا يتعب نفسه.

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٩٢).

ما أقلَّ مَنْ يعمل لله تعالى خالصاً؛ لأنَّ أكثر الناس يحبُّون ظهور عباداتهم، وسفيان الثوري كان يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي. وكانوا يسترون أنفسهم، واليوم ثيابُ القوم تُشهِرهم.

وقد كان أيوب السختياني[1] يطوِّل قميصه حتى يقع على قدميه، ويقول: كانت الشهرة في التطويل، واليوم الشهرة في التَّقصير[2].

فاعلم أنَّ ترْكَ النظر إلى الخلق، ومحوَ الجاه من قلوبهم بالتعمُّل[3]، وإخلاصِ القصد، وسترُ الحال هو الذي رفع من رفع.

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقتٍ ونعليه في يديه، ويخرج للّقاط[4].

وبِشر يمشي حافياً على الدوام وحدَه، ومعروف يلتقط النوى.

واليوم صارت الرئاسات أكثر من كلِّ حاجة، وما تتمكَّن الرئاسات حتى يتمكَّن من القلب الغفلة، ورؤيةُ الخلق، ونسيانُ الحقِّ، فحينئذٍ تطلب الرئاسة على أهل الدنيا.

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى من يتزيَّا بالعلم، فإن رآني أمشي وحدي أنكر عليَّ، وإن رآني أزور فقيراً عظَّم ذلك، وإن رآني أنبسط بتبسم نقصتُ من عينه.

فقلت: فواعجباً! هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم؛ فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه لا جرم.

فوالله سقطتم من عين الحقِّ، فأسقطكم من عين الخَلْق.

---

(١) هو: أيوب بن أبي تميمة، أبو بكر: سيد فقهاء عصره، تابعي، من النساك الزهاد، ومن حفاظ الحديث، كان ثبتاً، ثقة، توفي سنة (١٣١هـ). حلية الأولياء (٢/٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/٢٢).

(٣) «التعمل»: تعمَّل الرجلُ كذا: تكلَّف العملَ.

(٤) «اللقاط»: السنبل الذي تخطئه المناجل.

فكم ممن يتعب في تربية ناموسٍ، ولا يلتفت إليه، ولا يحظى بمراده، ويفوته المرادُ الأكبر.

فالتفتوا - إخواني - إلى إصلاح النِّيَّات، وترك التزيُّن للخلق، ولتكن عمدتُكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السَّلف وسعِدوا، وإيَّاكم وما الناس عليه اليوم، فإنَّه بالإضافة إلى يقظة السَّلف نوم[1].



يا قوم! قد علمتم أنَّ الأعمال بالنِّيَّات. وقد فهمتم قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقد سمعتم عن السَّلف: أنَّهم كانوا لا يعلمون، ولا يقولون حتى تتقدم النِّيَّة، وتصحَّ.

أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح!؟ وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوامِّ تقصدون المغالبة! أو ما سمعتم: **«مَنْ طلب العلمَ ليباهي به العلماء، أو ليماري به السُّفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، لم يرح رائحة الجنة»**[2]، ثم يُقدِم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها، وقد كان السَّلف يتدافعونها.

يا معشر المتزهدين! إنَّه يعلم السر وأخفى، أتُظهِرون الفقر في لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس؟! وتُظهِرون التخاشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات.

كان ابن سيرين يضحك، ويقهقه، فإذا خلا، بكى أكثر الليل. وقال سفيان لصاحبه: ما أوقحك تصلي والناس يرونك؟!.

آهٍ للمُرائي من يوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وهي النيات! فأفيقوا من سكركم، وتوبوا من زللكم، واستقيموا على الجادَّة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦][3].



---

(١) جاء هذا في الفصل (١٧٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤)، والترمذي (٢٦٥٤).

(٣) جاء هذا في الفصل (٣٦٠).

- ٩ -

أخطاء الوعاظ

تأمّلت أشياء تجري في مجالس الوعظ، يعتقدها العوامُ وجهّالُ العلماء قربةً، وهي منكرٌ وبُعْدٌ.

وذاك أنَّ المقرئ يُطرب ويُخرجِ الألحان إلى الغناء، والواعظ ينشِد بتطريب أشعار المجنون وليلى، فيصفِّق هذا، ويخرِق ثوبه هذا؛ ويعتقد أنَّ ذلك قربة، ومعلوم أنَّ هذه الألحان كالموسيقى، يوجب طرباً للنفوس، فالتعرُّض بما يوجب الفساد غلطٌ عظيم.

وينبغي الاحتساب على الوعَّاظ في هذا. وكذلك المقابريون منهم؛ فإنهم يهيجون الأحزان ليكثر بكاءُ النّساء؛ فَيُعْطَوْن على ذلك الأجرة، ولو أنهم أمروا بالصَّبر لم ترد النسوة ذلك، وهذه أضدادٌ للشَّرع.

قال ابن عقيل: حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد، فقرأ المقرئ: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فقلت له: هذه نياحةٌ بالقرآن.

وفي الوُعَّاظ من يتكلَّم على طريق المعرفة والمحبَّة، فترى الحائكَ والسَّوقيَّ الذي لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله تعالى، والصافي حالاً منهم وهو أصلحهم يتخايل بوهمه شخصاً هو الخالق، فيبكيه شوقاً إليه لما يسمع من عظمته، ورحمته، وجماله، وليس ما يتخايلونه المعبود، لأنَّ المعبود لا يقع في خيال.

وبعد هذا فالتحقيق مع العوامِّ صعبٌ، ولا يكادون ينتفعون بمرِّ الحق.

إلا أنَّ الواعظ مأمور بأن لا يتعدَّى الصواب، ولا يتعرَّض لما يُفسِدهم؛ بل يجذِبُهم إلى ما يصلُح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة.

فإنَّ من العوام من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشِّعر، وأحوجُ الناس إلى البلاغة الواعظُ ليجمعَ

مطالبهم، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيَهم من المباح في اللفظ قدْر الملح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم، ويعرفهم الطريق الحق.

وقد حضر أحمد بن حنبل؛ فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى، ثم قال: لا يعجبني الحضور، وإنما بكى لأنَّ الحال أوجبت البكاء، وقد كان جماعة من السَّلف يرون تخليطَ القُصَّاص، فينهَوْن عن الحضور عندهم.

وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم، لأنَّه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضورَ القصص صادّاً لهم، واليوم كثُرُ الأعراضُ عن العلم، فأنفعُ ما للعاميِّ مجلسُ الوعظ، يردُّه عن ذنب، ويحرِّكه إلى توبة، وإنما الخَلَلُ في القاصِّ؛ فليتق الله عزَّ وجلَّ[1].



- ١٠ -

العزلة المشروعة

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخَلْق خصوصاً للعالم والزَّاهد، فإنَّك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمة، ومن يأخذ عليك غلطاتك.

فيا للعزلة ما ألذها! سلِّمت من كدر غيبة، وآفات تصنُّع، وأحوال المداجاة[2]، وتضييع الوقت. ثم خلا فيها القلب بالفكر، فدبَّر أمر دنياه وآخرته. فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المِعى بالأخلاط، فيذيبُها.

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء

(١) جاء هذا في الفصل (٦٠).

(٢) «المداجاة»: المداراة.

الناس وكلامهم، فيشتغل بها عمَّا بين يديه، فمثلُه كمثل رجل يريد سفراً قد أزِف[1]، فجالس أقواماً، فشغلوه بالحديث حتى ضُرِب البوقُ وما تزوَّد، فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل والسَّلامة من شرِّ المخالطة؛ كفى.

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزَّاهد، فإنهما يعلمان مقصود العزلة.

أما العالم فعلمُه مؤنسُه، وكتبُه محدِّثه، والنَّظر في سِيَر السَّلف نديمُه، والتفكُّر في حوادث الزمان السابق فُرْجَتُه، فإن ترقَّى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته؛ تضاعفت لذَّاتُه، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها؛ فخلا بحبيبه، وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزَّاهد تعبُّده أنيسه، ومعبوده جليسُه، فإن كُشِفَ لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق، وغابوا عنه.

إنما اعتزلا ما يؤذي؛ فهما في الوحدة بين جماعة؛ فهذان رجلان قد سلما من شرِّ الخلق، وسلم الخلق من شرورهما، بل هما قدوةٌ للمتعبِّدين، وعلَمٌ للسالكين، ينتفع بكلامهما السَّامع، وتحرك موعظتُهما المدامع، وتنتشر هيبتُهما في المجامع.

فمن أراد أن يتشبه بأَحدهما؛ فليصابر الخلوة وإن كرهها، ليثمر له الصَّبر العسل.

وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالَم، خصوصاً لأرباب المال والسلاطين، فما يحصل له شيءٌ من الدُّنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله.

ثم أين الأنفة من الذل للفساق؟ فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوق طعم العلم، ولا يدري ما المرادُ به، وكأنه به وقد وقع في بادية وقفر مهلك في تلك البراري.

---

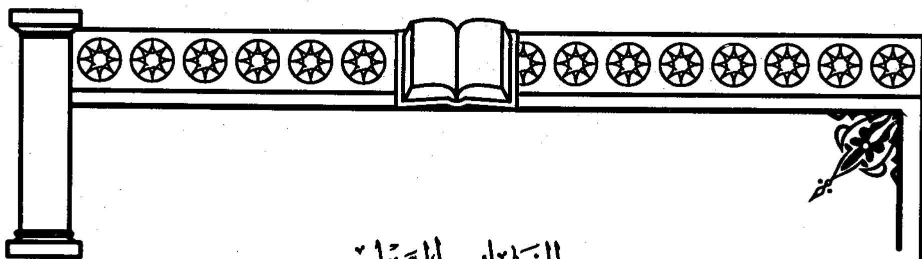
(١) «أزف»: حان موعده.

وكذلك المتزهد إذا خالط، وخلط، فإنَّه يخرج إلى الرِّياء والتصنُّع، والنفاق، فيفوته الحظَّان؛ لا الدنيا ونعيمها تحصل له، ولا الآخرة.

فنسأل الله عزَّ وجلَّ خلوةً حلوة، وعزلةً عن الشرِّ، يستصلحنا فيها لمناجاته، ويُلْهِم كلاًّ منا طلب نجاته! إنه قريب مجيب[1].

* * *

(١) جاء هذا في الفصل (١٨٨).



الفَصْلُ السَّابِعُ

الزهد لا يكون إلا عن علم

- ١ -
نشأة التصوف وعوامل الانحراف

تأملتُ أحوال الصوفية والزُّهاد، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة، بين جهلٍ بالشرع، وابتداعٍ بالرأي.

يستدلون بآياتٍ لا يفهمون معناها.

وبأحاديثَ لها أسباب، وجمهورُها لا يثبت.

فمن ذلك، أنهم سمعوا في القرآن العزيز: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم سمعوا في الحديث: **«الدُّنيا أهونُ على الله من شاة ميتة على أهلها»**[1]، فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها.

وذلك أنَّه ما لم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدحَ ولا أن يَذُمَّ.

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التي جُعِلت قراراً

(١) رواه مسلم (٢٩٥٧).

للخلق، يخرج منها أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم، ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه. ورأينا ما عليها من ماء، وزرع، وحيوان كلُّه لمصالح الآدمي، وفيه حفظ لسبب بقائه، ورأينا بقاء الآدمي سبباً لمعرفة ربِّه، وطاعته إيَّاه.

وما كان سبباً لبقاء العارف العابد يمدح ولا يُذَمُّ.

فبان لنا أنَّ الذم إنما هو لأفعال الجاهل، أو العاصي في الدنيا.

فإنه إذا اقتنى المال المباح، وأدى زكاته لم يُلَمْ، فقد علم ما خلف الزبيرُ وابنُ عوف وغيرُهما.

وأما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله عزَّ وجلَّ، وحق على ذي الناقة أن يكرمَها لِتَحْمِلَه.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يأكل ما وجد، فإنْ وجد اللحم أكله، ويأكل لحم الدَّجاج، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل، وما نقل عنه أنه امتنع من مباح.

وجيء عليٌّ رضي الله عنه بفالوذج، فأكل منه، وقال: ما هذا؟ قالوا: يوم النيروز، فقال: نورزونا كلَّ يوم.

وإنما يكره الأكل فوق الشبع، واللُّبْسُ على وجه الاختيال والبطر.

وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك، لأنَّ الحلال الصافي لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد، وإلا فقد لبِس النَّبيُّ ﷺ حُلَّة أهديت له[1]، وكان لتميم الداري حُلَّةٌ اشتُريت بألف درهم يصلي فيها بالليل[2].

فجاء أقوامٌ، فأظهروا التزهُّد، وابتكروا طريقةً زينها لهم الهوى، ثم تطلَّبوا لها الدليل، وإنما ينبغي للإنسان أن يَتَّبع الدليل، لا أن يَتَّبع طريقاً، ويتطلب دليلها. ثم انقسموا.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣٤).

(٢) مجمع الزوائد (١٣٥/٥).

فمنهم: متصنعٌ في الظَّاهر، لَيْثَ الشَّرى في الباطن، يتناول في خلواته الشهوات، وينعكف على اللذات، ويُري الناسَ بزِيِّه أنَّه متصوفٌ متزهد، وما تزهَّد إلا القميص، وإذا نظر إلى أحواله فعنده كِبْرُ فرعون.

ومنهم: سليم الباطن، إلا أنه بالشرع جاهل.

ومنهم: من تصدَّر، وصنَّف، فاقتدى به الجاهلون في هذه الطريقة، وكانوا كعُمْيٍ اتبعوا أعمى، ولو أنهم تلمحوا للأمر الأول؛ الذي كان عليه الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم لما زاغوا.

ولقد كان جماعةٌ من المحققين لا يبالون بمعظَّم في النفوس إذا حاد عن الشريعة، بل يوسعونه لوماً.

فنقل عن أحمد أنَّه قال له المروزي: ما تقول في النكاح؟ فقال: سنَّة النَّبيِّ ﷺ. فقال: فقد قال إبراهيم[1]: قال: فصاح بي، وقال: جئتنا ببنيات الطريق!.

وقيل له: إن سرياً السَّقطي[2] قال: لما خلق الله تعالى الحروف؛ وقفت الألف، وسجدت الباء. فقال: نفروا الناس عنه.

ولعمري! أنه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام، فإذا نقل عنهم شيء، فسمعه جاهلٌ بالشرع؛ قبله؛ لتعظيمهم في نفسه.

وقد نقل عن بعض الصوفية أنه قال: سرت إلى مكة على طريق التوكل حافياً، فكانت الشوكة تدخل في رجلي فأحكها بالأرض ولا أرفعها، وكانَ عليَّ مِسْحٌ[3]، فكانت عيني إذا آلمتني أدلكها بالمِسْح، فذهبت إحدى عينيَّ.

---

(١) هو: إبراهيم بن أدهم التميمي البلخي، أبو إسحاق: زاهد مشهور. توفي سنة (١٦١هـ). حلية الأولياء (٧/٣٦٧).

(٢) هو: سري بن المغلس، أبو الحسن: من كبار المتصوفة في بغداد. توفي سنة (٢٥٣هـ). الأعلام (٣/٨٢).

(٣) «مسح»: هو الكساء من شعر.

وأمثال هذا كثير، وربما حملها القُصّاص على الكرامات، وعظموها عند العوام، فيخايل لهم أنَّ فاعل هذا أعلى مرتبةً من الشافعي، وأحمد.

ولعمري! إنَّ هذا من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً**»[1].

وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه في طريق الهجرة للنَّبيِّ ﷺ ظلاً حتى رأى صخرة، ففرش له في ظلِّها.

وقد نُقِل عن قدماء هذه الأمة بداياتُ هذا التفريط، وكان سببه من وجهين:

أحدهما: الجهل بالعلم.

والثاني: قرب العهد بالرهبانية.

وكم قد زوق قاصٌّ مجلسه بذكر أقوام، خرجوا إلى السياحة بلا زاد، ولا ماء، وهو لا يعلم أنَّ هذا من أقبح الأفعال! وأن الله تعالى لا يُجَرَّب عليه، فربما سمعه جاهل من التائبين، فخرج، فمات في الطريق، فصار للقائل نصيبٌ من إثمه.

وكم ينقلون: أنَّ أقواماً مشوا على الماء، وقد قال إبراهيم الحربيُّ[2]: لا يصحُّ أنَّ أحداً مشى على الماء قط!.

فإذا سمعوا هذا قالوا: أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين؟ فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نتَّبع ما صحَّ؛ والصَّالحون هم الذين يتَّبعون الشرع، ولا يتعبدون بآرائهم.

---

(١) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) هو: إبراهيم بن إسحاق، من أعلام المحدثين، عارفاً بالفقه، زاهداً، توفي سنة (٢٨٥هـ). الأعلام (٣٢/١).

وكم يحثُّون على الفقر حتى حملوا خلقاً على إخراج أموالهم، ثم آل بهم الأمر إما إلى التسخُّط عند الحاجة، وإما إلى التعرُّض بسؤال الناس.

وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل! وقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«ثلث طعام، وثلثُ شراب، وثلثُ نفس»**[1]، فما قنِعوا حتى أمروا بالمبالغة في التقلل.

أفترى هذا شيء تقتضيه الحكمة، أو ندب إليه الشرع؟.

وإنما مطية الآدمي قواه، فإذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة.

ولا تقولن: الحصول على الحلال المحض مستحيل، لذلك وجب الزهد تجنباً للشبهات، فإن المؤمن حسبه أن يتحرى في كسبه هو الحلال، ولا عليه من الأصول التي نبتت منها هذه الأموال.

فإنّا لو دخلنا ديار الروم، فوجدنا أثمان الخمور وأجرة الفجور، كان لنا حلالاً بوصف الغنيمة. أفتريد حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن على وجهٍ لا يجوز!.

فهذا شيء لم ينظر فيه رسولُ الله ﷺ. أو ليس قد سمعت أنَّ الصدقة عليه حرام؟ فلما تُصدِّق على بُرَيْرة بلحم فأهدته، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف[2].

وقد قال أحمد بن حنبل: أكره التقلُّل من الطَّعام، فإن أقواماً فعلوه، فعجزوا عن الفرائض.

وهذا صحيح؛ فإنَّ المتقلِّل لا يزال يتقلَّل إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض، ثم يعجِز عن مباشرة أهله وإعفافِهم، وعن بذل القوى في الكسب لهم، وعن فعل خير قد كان يفعله.

ولا يهولنَّك ما تسمعه من الأحاديث التي تحث على الجوع، فإن

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩).

(٢) قال ﷺ: **«هو لها صدقة ولنا هدية»**. رواه البخاري (٢٥٧٨)، ومسلم (١٠٧٥).

المراد بها إما الحثُّ على الصَّوْم، وإما النَّهي عن مقاومة الشِّبَع[1].

فأما تنقيص المطعم على الدوام، فمؤثرٌ في القِوى، فلا يجوز.

ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم، والنَّبيُّ ﷺ كان يودُّ أن يأكله كلَّ يوم[2].

واسمعْ مني بلا محاباة: لا تحتجنَّ عليّ بأسماء الرجال، فتقول قد قال بِشْر[3]، وقال إبراهيم بن أدهم، وإن من احتج بالرسول ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم أقوى حجةً، على أنَّ لأفعال أولئك وجوهاً نحملها عليهم بحسن الظن.

ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظِّمه، ونزوِّره، أنه كان على شاطىء دجلة، فبال ثم تيمم، فقيل له: الماء قريب منك، فقال: خفت ألا أبلغه، وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا هذا الحديث تلاعبوا به، من جهة أنَّ التيمُّم إنما يصحُّ عند عدم الماء، فإذا كان الماء موجوداً كان تحريك اليدين بالتيمم عبثاً، وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلى جانب المُحدِث، بل لو كان على أذرع كثيرة كان موجوداً، فلا فعل للتيمم، ولا أثر حينئذٍ.

ومن تأمَّل هذه الأشياء، علم أن فقيهاً واحداً ـ وإن قلَّ أتباعه، وخَفَت إذا مات أشياعه ـ أفضلُ من ألوفٍ تتمسَّح العوامُّ بهم تبركاً، ويشيِّع جنائزَهم ما لا يحصى.

وهل النَّاس إلا صاحب أثر نتَّبعه، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به؟.

نعوذ بالله من الجهل، وتعظيم الأسلاف تقليداً لهم بغير دليل!.

---

(1) أي: الشبع المفرط.

(2) زاد المعاد (٤/٣٧١).

(3) هو: بِشْر بن الحارث، أبو نصر: من كبار الصالحين، ومن ثقات رجال الحديث. له في الزهد والورع أخبار. توفي سنة (٢٢٧هـ). الأعلام (٢/٥٤).

فإن من ورد المَشْرَب الأول رأى سائر المشارب كَدِرَة، والمحنةُ العظمى مدائحُ العوام، فكم غرت؛ كما قال علي رضي الله عنه: ما أبقى خفقُ النِّعال وراء الحمقى من عقولهم شيئاً.

ولقد رأينا وسمعنا من العوام أنهم يمدحون الشخص؛ فيقولون: لا ينامُ الليل، ولا يفطرُ النهار، ولا يعرِف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً، قد نحل جسمُه، ودقَ عظمُه، حتى أنه يصلِّي قاعداً، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون.

ذلك مبلغهم من العلم، ولو علموا أنَّ الدنيا لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يفتي عن الله، ويخبر بشريعته، كانت كلّها فتوى واحدة منه يرشد بها إلى الله تعالى خيراً وأفضلَ من عبادة ذلك العابد باقي عمره. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على إبليس من ألف عابد[١].

ومن سمع هذا الكلام فلا يظن أنني أمدحُ من لا يعمل بعلمه، وإنما أمدحُ العاملين بالعلم، وهم أعلم بمصالح أنفسهم، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش كأحمد بن حنبل، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش، كسفيان الثوري مع ورعه، ومالك مع تديُّنه، والشافعي مع قوة فِقهه.

ولا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوي عليه غيره، فيضعُفَ هو عنه، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه.

وقد قالت رابعة[٢]: إن كان صلاح قلبك في الفالوذج فكله.

فهذه جملة لو شرحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت؛ غير أني سطَّرتُها على عجلٍ حين جالت في خاطري، والله وليُّ النفع برحمته[٣].



(١) رواه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢).

(٢) هي: رابعة العدوية بنت إسماعيل، أم الخير البصرية صالحة، مشهورة، لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر. توفيت سنة (١٣٥هـ). الأعلام (١٠/٣).

(٣) جاء هذا في الفصل (١٩).

- ٢ -
العناية بالجسم واجبة

معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل، صحيحِ المزاج، والترقي إلى محبَّته بذلك يكون.

وإنَّ أقواماً قلَّت عقولُهم، وفسدت أمزجتُهم، فساءت مطاعمُهم، وقلَّت، فتخايلتْ لهم الخَيالات الفاسدة، فادَّعوا معرفة الحقِّ، ومحبته، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدُّهم عمَّا ادَّعَوا، فهلكوا.

فمنهم من يقول: إني رأيت الملائكة، وفيهم مَنْ يُخْرِجه الأمر إلى دعوى محبة الحق، والوله[1] فيه، ولا يكون ذلك عن أصلٍ معتمد عليه.

وإنما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرفيقين: العلم، والعقل.

فإن تقلل من الطعام؛ فبعقل؛ وحدُّ التقلل: ترك فضول المطعم، وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يحذر تعوُّدها، وأما زيادة التقلل مع القدرة؛ فليس لعقلٍ ولا شرع... إلا أن يكون الفقر عمَّ، فيتقلَّل ضرورة.

ومن تأمَّل حال رسول الله ﷺ وأصحابِه، وجدهم يأخذون بمقدار، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلِحُها.

وما أحسن الأمر وأعدله قول رسول الله ﷺ: **«ثلث طعام، وثلثٌ شراب، وثلثٌ نَفَس»**[2].

وقد قال لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض: **«أصب من هذا الطعام؛ فهو أوفق لك من هذا»**. وكان ﷺ يحتجم، ويحثُّ على التداوي ويقول: **«ما أنزل الله داءً إلا وأنزل له شفاءً، فتداووا»**[3].

---

(١) «الوله»: التحير من شدة الوجد.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٤٣٨).

فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة في بنيان الأبدان:

فمنهم: من أقام في الجبال يأكل البلُّوط، فأصابه القولنج[1].

ومنهم: من قلَّل المطعم إلى أن ضعُفت قواهم.

ومنهم: من اقتصر على نبات الصحراء.

ومنهم: من كان لا يقوت إلا الباقلاء والشعير.

فأوجبت هذه الأفعال أمراضاً في البدن، وترقَّت إلى إفساد العقل؛ واتَّفق لهم قلةُ العلم، إذ لو علموا؛ لفهموا أنَّ الحكمة تنهي عن مثل هذا، فإن البدن مبنيٌّ على أخلاطٍ إذا اعتدلت؛ وقعت السَّلامة، وإذا زاد بعضُها، وقع المرض، وأكثر هؤلاء مرضوا، وتعجَّل لهم الموت، وفيهم من خرج إلى التسوْدُن، وفيهم من لاحت له لوائح فادَّعى رؤية الملائكة إلى غير ذلك.

ولا ينبغي أن يتهاون بالمأكولات، خصوصاً من لم يعتده، ولا يلبسَ الصُّوف على البدن مَنْ لم يعتده.

ولينظر في طريق رسول الله ﷺ وصحابته، فإنَّهم القدوة، ولا يلتفت إلى بنيات الطريق، فيقال: فلانٌ الزاهد قد أكل الطِّين، وفلانٌ كان يمشي حافياً، وفلانٌ بقي شهراً ما أكل، لأنَّ الجادة اتِّباع رسول الله ﷺ وأصحابِه، وما كانوا يفعلون.

هذا ولعمري إنه قد كان فيهم مَنْ يقنع بالمَذْقَة[2] من اللبن! ويصبِرُ الأيام عن الطعام؛ ولكن إمَّا لضرورة، أو لأنه معتاد لذلك كما يعتاد البدوي شرب اللبن وحده، ولا يؤذيه ذلك. وفي الحديث: **«عوِّدوا كلَّ بدنٍ ما اعتاد»**[3].

---

(١) «القولنج»: مرض معوي مؤلم.

(٢) «المذقة»: هي الشربة من اللبن الممزوج بالماء.

(٣) ذكره في كشف الخفا (١٧٨٨) وقال: ذكره السيوطي في الدرر.

فمَمْخضة[1] هذا الفصل أن أقول: ينبغي لمن رزق فَهْماً أن يسعى في صلاح بدنه، ولا يحمِلَ عليه ما يؤذيه، ولا يناولَه من القوت ما لا يوافقه، ولا يضيِّعَ ماله، وليجتهدْ في استثماره؛ لئلا يحتاج؛ فإنه ما نافق زاهد إلا لأجل الدُّنيا: ولينظرْ في سِيَرِ الكاملين من السَّلف، وليتشاغلْ بالعلم، فإنَّه الدليل[2].



- ٣ -
حفظ الأموال والسعي في طلبها

رأيتُ من أعظم حِيَلِ الشيطان ومكرِه، أن يحيط أربابَ الأموال بالآمال، والتشاغلِ باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها، فإذا شَغَلهم بالمال تحريضاً على جمعه، وحثّاً على تحصيله، أمرهم بحراسته بخلاً به، فذلك من متين حيله، وقويِّ مكرِه.

ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية أنْ خوَّف من جمعه من المؤمنين، فنفَّر طالب الآخرة منه، وبادر التائب يخرج ما في يده.

ولا يزال الشيطان يحرضه على الزهد، ويأمره بالترك، ويخوفه من طرقات الكسب؛ إظهاراً لنصحه وحفظ دينه.

وفي خفايا ذلك عجائبُ من مكرِه.

وربما تكلَّم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدي بهم التائب، فيقول له: اخرج من مالك، وادخل في زمرة الزُّهاد، ومتى كان لك غداءٌ أو عَشَاءٌ فلست من أهل الزُّهد، ولا تنالُ مراتبَ العزم.

---

(١) هي الزبدة والخلاصة.
(٢) جاء هذا في الفصل (٣٣٣).

وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصِّحة، والواردة على سبب ولمعنى.

فإذا أخرج ما في يده، وتعطَّل عن مكاسبه، عاد يعلِّق طمعه بصلة الإخوان. أو يُحسِّن عنده صحبةَ السلطان، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياماً. ثم يعود الطَّبع فيقاضي مطلوباته، فيقع في أقبح مما فرَّ منه، ويبذلُ أوَّلَ السِّلع في التحصيل: دينَه، وعرضَه، ويصيرُ متمندَلاً به، ويقف في مقام اليد السفلى.

ولو أنه نظر في سير الرجال ونبلائهم، وتأمَّل صحاح الأحاديث عن رؤسائهم؛ لعلم أنَّ الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال، حتى ضاقت بلدتُه بمواشيه، وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام، وكثيرٌ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمعُ الغفير من الصحابة.

وإنما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يُصلِحُهم، ولا من تناول المباح عند الوجود.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول ﷺ حيٌّ، وكان أكثرُهم يُخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال، ويَسْلَمُ من ذلِّ الحاجة إلى الإخوان، وقد كان ابنُ عمر لا يردُّ شيئاً، ولا يسأل.

وإني تأمَّلت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال، فوجدتُ العلم شغلَهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ذلُّوا، وهم أحقُّ بالعز.

وقد كانوا قديماً يكفيهم من بيت المال فضلات الإخوان، فلما عُدِمت في هذا الأوان، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيءٍ من دينه، وليته قَدَر، فربما تلِف الدِّين، ولم يحصلْ له شيء.

فالواجب على العاقل أن يحفظَ ما معه، وأن يجتهدَ في الكسب ليربحَ

مداراةَ ظالم[1]، أو مداهنةَ جاهل، ولا يلتفتْ إلى تُرَّهات المتصوفة، الذين يدَّعون في الفقر ما يدَّعون.

فما الفقر إلا مرضُ العجزة، وللصابر على الفقر ثوابُ الصابر على المرض. اللهمَّ إلا أن يكون جباناً عن التَّصرف، مقتنعاً بالكفاف، فليس ذلك من مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجبناء الزُّهاد[2].

وأما الكاسب ليكون المُعطِي لا المُعطَى، والمُتصدِّق لا المُتصدَّق عليه، فهي من مراتب الشجعان الفضلاء، ومَنْ تأمل هذا؛ علم شرف الغنى، ومخاطرة الفقر[3].



- ٤ -
التعامل مع شهوات النفس

بلغني عن بعض زهّاد زماننا أنَّه قُدِّم إليه طعام فقال: لا آكل. فقيل له: لِمَ؟ قال: لأن نفسي تشتهيه، وأنا منذ سنين ما بلَّغتُ نفسي ما تشتهي.

فقلت: لقد خفيت طريقُ الصَّواب عن هذا من وجهين، وسبب خفائها عدمُ العلم.

أما الوجه الأول: فإن النَّبيَّ ﷺ لم يكن على هذا، ولا أصحابه، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج، ويحبُّ الحلوى، والعسل.

ودخل فرقد السَّبَخي على الحسن وهو يأكل الفالوذج[4]، فقال:

(١) أي: ليربح نفسه، فلا يكون مضطراً لمداهنة ظالم، أو مداراته، أو ملقه.
(٢) الجبن ليس زهداً، فلو قال المؤلف: الجبناء المتزهدون لكان أولى.
(٣) جاء هذا في الفصل (١٥).
(٤) «الفالوذج»: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل.

يا فرقد! ما تقول في هذا؟ فقال: لا آكله، ولا أحبُّ مَنْ أكله. فقال الحسن: لعابُ النحل بلباب البُرِّ مع سَمْنِ البقر، هل يعِيبُه مسلم؟!.

وجاء رجلٌ إلى الحسن فقال: إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج، فقال: ولِمَ؟ قال: يقول: لا أؤدي شكره، فقال: إن جارك جاهل، وهل يؤدي شكر الماء البارد؟!.

وكان سفيان الثوري يحمِلُ في سفره الفالوذج، والحَمَلَ المشويَّ، ويقول: إنَّ الدابة إذا أُحْسِن إليها عملت.

وما حدث في الزُّهاد بعدهم أمور من هذا الفن مسروقة من الرهبانية، وأنا خائف من قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [المائدة: ٨٧].

ولا يُحفَظ عن أحدٍ من السَّلف الأول من الصحابة من هذا الفنِّ شيءٌ إلا أن يكون ذلك لعارض.

وسبب ما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه اشتهى شيئاً فآثَرَ به فقيراً، وأعتق جاريته رميثة، وقال: إنها أحبّ الخلق إليَّ[1]، فهذا وأمثاله حسن، لأنَّه إيثارٌ بما هو أجود عند النفس من غيره، وأكثر لها من سواه، فإذا وقع في بعض الأوقات، كسرت بذلك الفعل سَوْرة هواها أن تطغى بنيل كلِّ ما تريد.

فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق، فإنه يُعْمِي قلبها، ويبلِّد خواطرها، ويشتِّتُ عزائمها، فيؤذيها أكثر مما ينفعُها.

وقد قال إبراهيم بن أدهم: إنَّ القلب إذا أكره عمي.

وتحت مقالته سرٌّ لطيف، وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع طبيعة الآدمي عل معنىً عجيب؛ وهو أنها تختار الشيء من الشهوات مما يُصلِحُها، فتعلم باختيارها له صلاحه، وصلاحها به.

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٩٥ ـ ٢٩٧).

وقد قال حكماء الطب: ينبغي أن يُفسَح للنفس فيما تشتهي من المطاعم ـ وإن كان فيه نوع ضرر ـ لأنها إنما تختار ما يلائمها، فإذا قمعها الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضَّرر، ولولا جواذبُ في الباطن من الطبيعة ما بقي البدن. فإنَّ الشهوة للطعام تثور، فإذا وقعت الغنيمة بما يتناول كفَّت الشهوة، فالشهوة مريدٌ ورائد، ونعم الباعث على مصلحة البدن.

غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى، ومتى مُنِعتْ ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فساد العاقبة؛ عاد ذلك بفساد أحوال النفس، ووَهْن الجسم، واختلاف السَّقَم؛ الذي تتداعى به جملة، مثل أن يمنعها الماءَ عند اشتداد العطش، والغذاءَ عند الجوع، والجماعَ عند قوة الشهوة، والنومَ عند غلبته، حتى إنّ المغتمَّ إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكَمَدُ.

فهذا أصلٌ إذا فهمه هذا الزَّاهد؛ علم أنَّه قد خالف طريق الرسول ﷺ وأصحابه؛ من حيث النقل، وخالف الموضوع في الحكمة.

ولا يلزم على هذا قول القائل: فمن أين يصفو المطْعَم؟ لأنه إذا لم يَصْفُ كان الترك وَرَعاً، وإنما الكلام في المطعم الذي ليس فيه ما يؤذي في باب الورع، وكان ما شرحته جواباً للقائل: ما أُبلِغُ نفسي شهوة على الإطلاق.

والوجه الثاني: أنِّي أخاف على الزَّاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك فصار يشتهي ألاَّ يتناول. وللنفس في هذا مكرٌ خفيٌّ، ورياءٌ دقيق، فإن سلمت من الرِّياء للخَلْقِ، كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل، وإدلالِها في الباطن به، فهذه مخاطرةٌ وغَلَط.

وربما قال بعض الجُهَّال: هذا صَدٌّ عن الخير والزُّهد! وليس كذلك؛ فإنَّ الحديث قد صح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(١).

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

ولا ينبغي أن يغتر بعبادة جُريج[1]، ولا بتقوى ذي الخُويصرة[2].

ولقد دخل المتزهِّدون في طرق لم يسلُكْها الرسول ﷺ، ولا أصحابه، من إظهار التخشُّع الزائد في الحدِّ، والتنوق[3] في تخشين الملبس، وأشياء صار العوام يستحسنونها، وصارت لأقوام كالمعاش، يجتنون من أرباحها، كتقبيل اليد، وتوفير التوقير، وحراسة الناموس، وأكثرُهم في خلوته على غير حالته في جَلْوَتِه.

وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهةً، وإذا خلا بالليل فكأنَّه قتل أهل القرية.

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً فهو الأصل، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود عزَّ وجلَّ، وحرك إلى عبادته بمقتضى ما شرَعه وأحبَّه، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص.

وأصلُ الأصول: العلم. وأنفع العلوم: النَّظَر في سير الرسول ﷺ وأصحابه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠][4].



ـ ٥ ـ
جهاد النفس

تأمَّلت جهاد النفس، فرأيته أعظمَ الجهاد، ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأنَّ فيهم من مَنَعَها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

---

(١) قصة جريج رواها البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) قصة ذي الخويصرة التميمي رواها البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد.

(٣) «التنوق»: المبالغة.

(٤) جاء هذا في الفصل (٣٦).

أحدهما: أنه رُبَّ مانع لها شهوةً أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنَعها مباحاً، فيشتهرَ بمنعه إياها ذلك، فيرضي النَّفس بالمنع؛ لأنَّها قد استبدلتْ به المدحَ. وأخفى من ذلك أن يرى ـ بمنعه إياها ما منع ـ أنه قد فضل من سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى مِنقاش[1] فَهمٍ يُخَلِّصُها.

والوجه الثاني: أنّنا قد كُلِّفنا حفظَها، ومن أسباب حفظِها ميلُها إلى الأشياء التي تقيمها، فلا بدَّ من إعطائها ما يقيمُها، وأكثر ذلك أو كلُّه ما تشتهيه.

ونحنُ كالوكلاء في حفظها؛ لأنها ليست لنا، بل هي وديعةٌ عندنا، فمنعُها حقوقَها على الإطلاق خطر.

ثم رُبَّ شدٍّ أوجب استرخاء، ورب مضيِّقٍ على نفسه فرَّتْ منه فصَعُب عليه تلافيها.

وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملُها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، ويذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرَّ جوعاً، ومن لُقْمَةٍ ربما حرمت لُقمات.

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامَها، ولا يُهْمِل مقودَها، بل يُرْخِي لها في وقتٍ والطِّوَل[2] بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها.

فإذا رآها قد مالت ردَّها باللطف، فإن ونَتْ[3] وأبَتْ، وإلا فبالعُنْف.

ويحبسها في مقام المداراة، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلَّة، فهي تُدارى عند نشوزها[4] بالوعظ، فإن لم تَصْلحْ فبالهجر، فإن لم تَسْتَقِم فبالضرب.

وليس في سياط التأديب أجودُ من سوط عزم.

---

(١) «منقاش»: هو الملقط الذي تلتقطه به أدق الأشياء.
(٢) «الطِّول»: الحبل الطويل يربط إلى وتد ونحوه.
(٣) «ونَتْ»: ضعفت وتعبت.
(٤) «نشوزها»: نشزت المرأة: تعالت على الرجل وأساءت العشرة.

هذه مجاهدةٌ من حيث العمل.

فأمَّا ما حيث وعظُها وتأنيبُها، فينبغي لِمَنْ رآها تسكن للخَلْقِ، وتتعرض بالدناءة من الأخلاق أنْ يعرِّفها تعظيم خالقها لها، فيقول: ألست التي قال فيك خلقتك بيدي، وأسجدت لك ملائكتي، وارتضاك للخلافة في أرضه، وراسلك[1]، واقترض[2] منك، واشترى[3]؟.

فإن رآها تتكبَّر؛ قال لها: هل أنت إلا قطرةٌ من ماءٍ مهين، تقتلك شَرْقَةٌ، وتؤلمك بقَّة؟!.

وإن رأى تقصيرها؛ عرَّفها حق الموالي على العبيد.

وإن ونت في العمل؛ حدَّثها بجزيل الأجر. وإن مالت إلى الهوى، خوَّفها عظيم الوزر.

ثم يحذِّرها عاجلَ العقوبة الحسِّيَّة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنوية، كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهذا جهادٌ بالقول، وذاك جهادٌ بالفعل[4].

***

- ٦ -
دعوى التوكل

تفكرت، فرأيت أنَّ حفظ المال من المتعين، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلاً من إخراج ما في اليد ليس بالمشروع؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال

(١) «راسلك»: راسل: أرسل رسولاً.
(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].
(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].
(٤) جاء هذا في الفصل (٣٧).

لكعب بن مالك: «**أمسكْ عليك بعضَ مالك**»[1]، أو كما قال له. وقال لسعد: «**لأن تترك ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تتركَهم عالةً يتكفَّفون الناس**»[2].

فإن اعترض جاهل، فقال: فقد جاء أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ماله[3]!.

فالجواب: أنَّ أبا بكر صاحبُ جأش وتجارة، فإذا خرج الكلَّ أمكنه أن يستدين عليه، فيتمعيش؛ فمن كان على هذه الصفة لا أذمُّ إخراجه لماله.

وإنما الذمُّ متطرقٌ إلى مَنْ يُخرِج ماله وليس من أرباب المعائش، أو يكون من أولئك؛ إلا أنه ينقطع عن المعاش، فيبقى كلاً[4] على الناس، يستعطيهم، ويعتقد أنَّه على الفتوح، وقلبه متعلقٌ بالخَلْق، وطمَعه ناشبٌ فيهم، ومتى حُرِّك بابُه نهض قلبه، وقال: رزقٌ قد جاء.

وهذا أمرٌ قبيح بمن يقدر به على المعاش، وإن لم يقدر كان إخراج ما يملك أقبح، لأنه يتعلق قلبه بما في أيدي الناس، وربما ذلَّ لبعضهم، أو تزيَّن له بالزُّهد، وأقلُّ أحواله أن يزاحم الفقراء، والمكافيف، والزّمنى[5] في الزَّكاة.

فعليك بالشِّرْب الأول[6]، فانظر هل فيهم من فعل ما يفعله جهلةُ المتزهِّدين؟.

وقد أشرت في أول هذا إلى أنهم كسِبوا، أو خلَّفوا الأموال، فرِدْ إلى

---

(١) رواه البخاري (٤٦٧٦)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٢) رواه البخاري (١٢٩٥) ومسلم (١٦٢٨).
(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨).
(٤) «كلاً»: الكل: مَنْ يعتمد على غيره في معيشته.
(٥) «الزمنى»: جمع زَمِن، وهو مَنْ مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً.
(٦) «الشرب الأول»: أي: السلف الصالح.

الشّرب الأول الذي لم يطرق فإنّه الصافي، واحذرْ من المشارع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة في المعنى على الشريعة، مذعنةً بلسان حالها أنَّ الشرع ناقصٌ يحتاج إلى ما يتمُّ به.

واعلم ـ وفقك الله تعالى ـ أنَّ البدن كالمَطِيَّة، ولا بدَّ من عَلْفِ المطيَّة، والاهتمامِ به؛ فإذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن السَّير.

وقد رؤي سلمان رضي الله عنه يحمل طعاماً على عاتقه، فقيل له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟ فقال: إنَّ النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنَّت[1].

وقال سفيان الثوري: إذا حصَّلت قوت شهر فتعبَّد[2].

وقد جاء أقوامٌ ليس عندهم سوى الدعاوي، فقالوا: هذا شكٌّ في الرازق، والثقةُ به أولى فإيَّاك وإيَّاهم.

وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزُّهاد من السَّلف، فلا يُعَوَّل عليه، ولا يَهولنَّك خلافهم. فقد قال أبو بكر المروزي[3]: سمعت أحمد بن حنبل يُرَغِّبُ في النكاح؛ فقلت له: قال ابن أدهم: فما تركني أتمم حتى صاح عليَّ، وقال: أذكرُ لك حال رسول الله ﷺ وأصحابِه، وتأتيني ببنيات الطريق.

واعلم ـ وفقك الله ـ: أنه لو رفض الأسباب شخصٌ يدَّعي التزهُّد، وقال: لا آكل، ولا أشرب، ولا أقوم من الشمس في الحرِّ، ولا أستدفىء من البرد، كان عاصياً بالإجماع.

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٠٧).

(٢) حلية الأولياء (٧/١٧).

(٣) هو: أحمد بن علي، أبو بكر: قاض، من حفَّاظ الحديث. له تصانيف ومسند. ولي قضاء حمص، ومات قاضياً بدمشق سنة (٢٩٢هـ). تذكرة الحفاظ (٢/٢١١)، والأعلام (١/١٧١).

وكذلك لو قال وله عائلة: لا أكتسبُ، ورزقُهم على الله تعالى، فأصابهم أذى كان آثماً؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيِّع من يَقُوت**»(١).

واعلم أنَّ الاهتمام بالكسب يجمَع الهمَّ، ويفرِغ القلب، ويقطَع الطَّمع في الخَلْق. فإن الطَّبع له حق يتقاضاه.

وقد بيَّن الشرع ذلك فقال: «**إنَّ لنفسك عليك حقاً؛ وإنَّ لعينك عليك حقاً**»(٢).

ومثال الطبع مع المريد السالك، كمثل كلبٍ لا يعرفُ الطارق، فكلُّ مَنْ رآه يمشي نبحَ عليه، فإن ألقى إليه كِسْرةً سكت عنه؛ فالمراد من الاهتمام بذلك جمع الهمِّ لا غير؛ فافهم هذه الأصول، فإنَّ فهمها مهمّ(٣).



وإنما تبع أقوام طريق الراحة، فادعوا أنهم متوكلة، وقالوا: نحن لا نمسك شيئاً، ولا نتزوَّد لسفر، ورزق الأبدان يأتي.

وهذا على مضادة الشرع، فإن رسول الله ﷺ نهى عن إضاعة المال.

وموسى عليه السلام لما سافر في طلب الخضر تزوَّد، ونبينا ﷺ لما هاجر تزوَّد، وأبلغُ من هذا قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم يدَّعي هؤلاء المتصوفة بُغْضَ الدنيا، فلا يفهمون ما الذي ينبغي أن يُبْغض، ويرون زيادة الطلب للمال حرصاً وشرهاً.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩٢).
(٢) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩).
(٣) جاء هذا في الفصل (٣٤).

وفي الجملة إنما اخترعوا بآرائهم طريقاً فيها شيءٌ من الرهبانية إذا صدقوا، وشيءٌ من البهرجة إذا نصبوا شباك الصَّيد بالتزهُّد؛ فسمُّوا ما يصل إليهم من الأرزاق: فتوحاً.

قال ابن قتيبة في غريب الحديث في قوله ﷺ: «**واليد العليا**»؛ قال: هي المُعْطية، قال: فالعجبُ عندي من قوم يقولون: هي الآخذة، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً استطابوا السؤال، فهم يحتجُّون للدناءة، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم.

وكان ابن عقيل رحمه الله يقول: من قال: إني لا أحبُّ الدُّنيا، فهو كذَّاب، فإنَّ يعقوبَ عليه السلام لما طُلِبَ منه ابنه يامين قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٦٤]، فقالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، فقال: خذوه.

وقال بعضُ السلف: من ادَّعى بُغْضَ الدُّنيا فهو عندي كذَّاب إلى أن يثبت صِدْقُه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون.

والعجبُ مِمَّن يذمُّ الدُّنيا، وهو يأكل فيشبع، ولا ينظر من أين المطعم؟ وما زال صالحو السَّلف يفتِّشون على المطعم، حتى كان إبراهيمُ بنُ أدهم يسهر هو وأصحابُه ويقولون: مع مَنْ نعمَلُ غداً؟ وكان سري السَّقطي يُعْرَف بطيب الغذاء، وله في الورع مقامات.

فجاء قوم يتسمون بالصوفية، يدَّعون اتباع أولئك السَّادة، ويأكلون من مال فلان ـ هم يعرفون أصول تلك الأموال ـ ويقولون: رزقنا.

فواعجباً إذا كان الآكل لا يبالي به من أين؟ ولا امتناع من شهوة، ولا تقلُّل، ثم يذم الدنيا بعد هذا[1].



(١) جاء هذا في الفصل (١٠١).

- ٧ -
الزهاد وعلم الحديث

سبحان من منَّ على الخلق بالعلماء الفقهاء؛ الذين فهموا مقصود الأمر، ومراد الشارع. فهم حفظة الشريعة، فأحسن الله جزاءهم، وإنَّ الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم، فإنَّهم يقدرون على أذاه، وهو لا يقدر على أذاهم.

ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليلي الفهم، وكان من أعجب تلاعبه أنْ حسَّن لأقوام ترك العلم، ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاغلين به، وهذا لو فهموه قدحٌ في الشريعة؛ فإنَّ رسول الله ﷺ يقول: «**بَلِّغُوا عنِّي**»[1].

وقد قال له ربُّه عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧].

فإذا لم يتشاغلْ بالعلم فكيف يبلغ الشريعة إلى الخلق؟!.

ولقد نُقِل مثلُ هذا عن كبار الزهاد، كبشر الحافي، فإنَّه قال لعباس بن عبدالعظيم: لا تجالس أصحاب الحديث. وقال لإسحاق بن الضيف: إنك صاحب حديث فأحبّ إلاَّ تعود إليَّ، ثم اعتذر فقال: إنما الحديث فتنة إلا لمن أراد الله به، وإذا لم يُعْمَل به فتركُه أفضل[2]. وهذا عجبٌ منه!.

من أين له أنَّ طلابه لا يريدون الله به، وإنهم لا يعملون به.

أو ليس العمل به على ضربين: عمل بما يجب، وذلك لا يسع أحداً تركه، والثاني: نافلة ولا يلزم.

والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة، وما أظنه أراد إلا طريقه في دوام الجوع والتهجُّد، وذلك شيء لا يلام تاركه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٢) حلية الأولياء (٨/٣٣٧، ٣٣٩).

فإن كان يريد ألاَّ يوغل في علوم الحديث فهذا خطأ؛ لأن جميع أقسامه محمودة؛ أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بِشْرٌ يفتي!.

فالله الله في الالتفات إلى قول من ليس بفقيه! ولا يهولنَّك تعظيمُ اسمه؛ فالله يعفو عنه[1].



وعلمُ الحديث هو الشريعة؛ لأنه مبيِّنٌ للقرآن، وموضِّحٌ للحلال والحرام، وكاشفٌ عن سِيَرِ الرسول ﷺ وسِيَرِ أصحابه.

وقد مزجوه بالكذب، وأدخلوا في المنقولات كلَّ قبيح.

فإذا وفِّق الزاهدُ والواعظُ؛ لم يذكرا إلا ما شهدا بصحته، وإن حرما التوفيق، عمل الزَّاهد بكلِّ حديث يسمعه لحسن ظنِّه بالرواة. وقال الواعظ كلَّ شيء يراه لجهله بالتَّصحيح، ففسدتْ أحوالُ الزَّاهد، وانحرف عن جادة الهدى، وهو لا يعلم.

وكيف لا وعموم الأحاديث الدالة على الزُّهد لا تثبت، مثل حديث ابن عمر رضي الله عنهما: **«أيما امرىء مسلم اشتهى شهوة فردَّ شهوته، وآثَرَ على نفسه؛ غُفِرَ له»**. وهذا حديث موضوع، يمنع الإنسان ما أبيح له مما يتقوَّى به على الطاعة.

وكذلك ما رووا أنَّ رسول الله ﷺ قُدِّم له أدمان فقال: **«أدمان في قدح، لا حاجةَ لي فيه، أكره أن يسألني الله عن فضول الدُّنيا»**.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ أكل البطيخ بالرُّطب، ومثل هذا إذا تتبع كثير، فقد بنوا على فساد، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ، لأنه يبني كلامه على أشياء فاسدة محالات.

ولقد كان جماعةٌ من المتزهِّدين يعملون على أحاديث ومنقولات

(١) جاء هذا في الفصل (١٨٢).

لا تصح، فيضيع زمانُهم في غير المشروع، ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات، ويرون أنَّ التجفُّف هو الدِّين.

وكذلك الوعاظ يحدِّثون الناس بما لا يصحُّ عن الرسول ﷺ ولا أصحابه؛ فقد صار المحال عندهم شريعة.

فسبحان من حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيارٍ ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين![1].



- ٨ -
البعد عن الشريعة

رأيت جمهور الناس حائدين عن الشَّريعة، جائزين على ما أَلِفوا من العادة.

وقد يخلُص منهم فريقان: علماء، وعباد.

فتأمَّلت جمهور العلماء، فرأيتهم في تخليط.

منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا، ويُعرِض عن معاملات الآخرة، إما لجهله بها، أو لثقل أمرها عليه، فهو يجري على ما يثقُل عليه مما يوجبه العلم، ويتَّبع في الباقي العادات. وربما تخايل أنَّه يُسامَح في الخطايا لكونه عالماً، وقد نسي: أنَّ العلم حجةٌ عليه.

ومنهم من هو واقفٌ مع صورة العلم، غافلٌ عن المقصود بالعلم.

وفيهم من يخالط السلطان، فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب، والظلم، ولا يمكنه الإنكار، وربما مدح هؤلاء.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢١٨).

ويتأذَّى السلطان بصحبته، فيقول: لولا أنِّي على صوابٍ ما جالسني هذا.

ويتأذَّى العوام، فيقولون: لولا أنَّ أمر السلطان قريبٌ ما خالطه هذا العالم. ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون أنَّ اليهود من بني إسرائيل.

وأمَّا الفريق الثاني، وهم العبَّاد: فرأيت أكثرهم في تخليط.

أما الصحيحو القصد منهم: فعلى غير الجادة في أكثر عملهم، قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفائنُ قبيحة، وأحاديثُ غيرُ صحيحة، ويأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة.

مثلُ كتب الحارث المحاسبي، وأبي عبدالله الترمذي، «وقوت القلوب» لأبي طالب المكِّي، وكتاب «الإحياء» لأبي حامد الطوسي.

فإذا فتح المبتدىء عينه وهمَّ بسلوك الطريق بهذه الكتب؛ حملته إلى الخطايا؛ لأنهم قد بنوا على أحاديث مُحالة[1]، ويذمُّون الدنيا، ولا يدرون ما المذموم منها، فيتصوَّرُ المبتدىء ذمَّ ذات الدنيا.

فيهربُ المنقطع إلى الجبل، وربما فاتته الجماعة والجمعة، ويقتصر على البلوط والكمَّثرى، فيورثه القولنج، ويقنع بعضهم بشرب اللبن، فينحل الطبع، أو يأكل الباقلاء، والعدس، فيحدُث له قراقر[2].

وإنما ينبغي لقاصد الحجِّ أن يرفُق أولاً بالناقة ليصل، ألا ترى للفَطِن من الأتراك يهتمُّ بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه.

وربما تصدَّى القاصُّ لشرح أحوال قومٍ من السَّلَف والمتزهدين، فيتبعهم المريد، فيتأذَّى بذلك، ومتى رددنا ذلكَ المنقول، وبيَّنا خطأ فاعله؛ قال الجهَّال: أنردُّ على الزهاد؟!.

---

(١) «مُحالة»: ضعيفة وساقطة.
(٢) «قراقر»: قرقر بطنه: صوَّت.

وإنَّما ينبغي اتباعُ الصَّواب، ولا ينظر إلى أسماء المعظمين في النفوس.

فإنا نقول: قال أبو حنيفة، ثمَّ يخالفه الشافعي، وإنما ينبغي أن يتبع الدليل. قال المروزي: مدح أحمدُ بنُ حنبل النكاح، فقلت له: قد قال إبراهيم بن أدهم؛ فصاح، وقال: وقعنا في بنيات الطريق، عليك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه!.

وتكلَّم أحمد في الحارث المحاسبي، وردَّ على سَرِيِّ السَّقَطي حين قال: لما خلق الله الحروف وقف الألف وسجدت الياء. فقال: نفِّروا الناس عنه، فالحق لا ينبغي أن يحابى فإنَّه جِد.

وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهِّدين كأنه شريعةٌ لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي: كان من السلف من يزن قوته بكَرَبَة[1]، فينقص كل يوم. وهذا شيء ما عرفه رسولُ الله ﷺ، ولا أصحابُه وإنما كانوا يأكلون دون الشِّبع.

فأمَّا الحمل على النفس بالجوع: فمنهي عنه.

ويقول: قال داود الطائي لسفيان: إذا كنت تشرب الماء البارد متى تحبُّ الموت.

ويقول آخر منهم: منذ خمسين سنة أشتهي الشِّواء، ما صفا لي درهمُه! ويقول آخر: أشتهي أن أغْمِس جزرة في دبس، فما صحَّ لي!.

هذا شيءٌ ما نظر فيه رسول الله ﷺ، وإن كان الورعُ حسناً، ولكن لا على حَمْل المشاقِّ الشديدة.

وهذا بِشْرُ الحافي يقول: لا أُحدثُ لأنِّي أشتهي أن أُحدث. وهذا تعليلٌ لا يصلُح. وكان بِشْرُ حافياً حتى قيل له: الحافي، ولو ستر أمره بنعلين كان أصلح، والحفا يؤذي العين، وليس من أمر الدنيا في شيء؛ فقد

---

(١) «كربة»: أصول السعف الغِلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف.

كان لرسول الله ﷺ نعلان، وما كانت سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه على ما المتزهِّدون عليه اليوم.

فقد كان رسول الله ﷺ يضحك، ويمزح، ويسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يأكل اللحم، ويحبُّ الحلوى، ويُستعذَب له الماء؛ وعلى هذا كان طريقة أصحابه.

فأظهر المتزهِّدون طرائق كأنها ابتداء شريعة، وكلُّها على غير الجادَّة، ويحتجُّون بقول المحاسبيِّ، والمكِّيِّ، ولا يحتجُّ أحدٌ منهم بصحابيٍّ، ولا تابعيٍّ، ولا بإمام من أئمة الإسلام.

فإن رأوا عالماً لبس ثوباً جميلاً، أو تزوَّج مستحسنة، أو أفطر بالنهار، أو ضحك عابوه.

فينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ أكثر من صحَّ قصدُه منهم على غير الجادة؛ لقلة علمهم؛ حتى أن بعضهم يقول: منذ ثمانين سنة ما اضطجعت، ويقول آخر: حلفت لا أشرب الماء سنة! وهؤلاء على غير صواب، فإنَّ للنفس حقّاً.

فأمَّا مَنْ ساء قصدُه ممن نافق، وراءى لاجتلاب الدُّنيا، وتقبيل الأيدي: فلا كلام معه، وهم جمهور المتصوِّفة، فإنهم رقعوا الثياب الملونة ليراهم الناس بعين التَّرك للزينة.

وإنما رفع القدماء للفقر. فهم في اللذات، وجمع المال، وأخذ الشبهات، واستعمال الرَّاحة، واللعب، ومخالطة السَّلاطين، وهؤلاء قد كشفوا القناع، وباينوا زهد أوائلهم، بلى، أعجب منهم مَنْ يَنْفَقُ هذا عليه[1].



(١) جاء هذا في الفصل (٣٦١).

- ٩ -
السلامة بالاقتداء به ﷺ

الجادةُ السليمة، والطريق القويمة: الاقتداءُ بصاحب الشَّرع، والبدار إلى الاستنان به، فهو الكاملُ الذي لا نَقْصَ فيه.

فإنَّ خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزُّهد، وحمَّلوا أنفسهم فوق الجَهْد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدنُ قد نُهِك، وفاتت أمورٌ مهمَّةٌ من العلم وغيره.

وإنَّ أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا فيه أواخِر العمر، وقد فاتهم العمل به.

فطريق المصطفى ﷺ العلمُ والعمل، والتلطُّف بالبدن، كما أوصى عبدَالله بن عمرو بن العاص وقال له: **«إنَّ لنفسك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً»**[١]، فهذه هي الطريقُ الوسطى الفضلى.

إن مَثَلَ العالم كرجلٍ يعرف الطريق، والعابدُ جاهل بها، فيمشي العابد من الفجر إلى العصر، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان، وقد سبق العالمُ فضل شوطه.

فإن قال قائل: بيِّن لي هذا!!.

قلت: صورةُ التعبُّد خدمةٌ لله تعالى، وذلٌّ له، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة، لأنَّه ربما ظنَّ أنَّه أهلٌ لوجود الكرامة على يده، وأنه مستحقٌّ تقبيلَ يده، أو أنه خيرٌ من كثيرٍ من الناس، وذلك كله لقلة العلم.

وأعني بالعلم: فهمَ أصول العلم، لا كثرةَ الرواية، ومطالعة مسائل الخلاف.

---

(١) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩).

فإذا طالع العالمُ الأصولي، سبق هذا العابدَ بحسن خُلُقٍ، ومداراةٍ للناس، وتواضعِه في نفسه، وإرشادِه الخلق إلى الله تعالى.

فعسر هذا على العابد وهو في ليل جهله بالحال راقد.

ربما تزوَّج العابد، ثم حمل نفسه على التجفُّف، فحبس زوجته عن مطلوبها، ولم يُطَلِّقْها، وصار كالتي حبست الهِرَّةَ **«فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشاش الأرضِ»**[1].

ومَنْ تأمل حالةَ الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً من الخلق، يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فتارةً يمزح، وتارةً يضحك، ويداعبُ الأطفال، ويسمع الشِّعر، ويتكلَّم بالمعاريض[2]، ويُحْسِن معاشرة النساء، ويأكل ما قدر عليه، وفتح له، وإن كان لذيذاً كالعسل، ويُسْتَعْذَبُ له الماء، ويُفْرَشُ له في الظلِّ، ولم ينكر ذلك، ولم يسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين من منع النفس شهواتها على الإطلاق؛ فقد كان يأكل البطيخ بالرُّطب، ويُقبِّل.

فأمَّا أكلُ خبزِ الشعير، ووزنُ المأكول، وتجفيفُ البدن، وهجرُ كلِّ مشتهى، فإنه تعذيبٌ للنفس، وهدمٌ للبدن، لا يقتضيه عقل، ولا يمدحُه شرع، وإنما اقتنع أقوامٌ بالقليل لأسباب؛ مثل: إن حدثت شبهة، فتقلَّلوا، أو اختلط طعامٌ بطعام، فتورَّعوا، ثم كان النبي ﷺ يوفي العبادة حقَّها بقيام الليل والاجتهاد في الذِّكر.

فعليك بطريقته التي هي أكملُ الطُّرق وبشرعته التي لا شوب فيها، ودعْ حديث فلان وفلان من الزُّهاد، واحملْ أمرهم على أحسن مَحْمَل، وأقمْ لهم الأعذار مهما قَدَرْتَ، فإن لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله، إذ هو قدوةُ الخلق، وسيِّدُ العقلاء.

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٢) «المعاريض»: التورية.

وهل فسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة! ولقد حَدَثَتْ آفاتٌ من المتصوِّفة والمتزهدين، خرقوا بها شبكة الشريعة، وعبروا.

فمنهم من يدَّعي المحبة والشوق، ولا يعرف المحبوب، فتراه يصيح، ويستغيث ويمزِّق ثيابه، ويخرج عن حدِّ الشرع بدعواه ومضمونها.

ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم، وقد صح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لعبدالله بن عمرو: «**صم يوماً، وأفطر يوماً**». فقال: أريد أفضل من ذلك! فقال: «**لا أفضل**».

وفيهم من خرج إلى السِّياحة، فأفات نفسه الجماعة.

وفيهم من دفن كتب العلم، وقعد يصلي، ويصوم، ولم يعلم أنَّ دفنها خطأٌ قبيح، لأنَّ النفس تغفل، وتحتاج إلى التذكير في كلِّ وقت، ونِعْمَ المذكرُ كُتب العلم.

وإنما دخل إبليس على كلِّ قوم منهم من حيث قدَر، وكان مقصودُه بدفن الكتب إطفاءَ المصباح، ليسير العَابدُ في الظلمة.

ومن المتصوفة والزُّهاد من قنِع بصورة اللباس، وركب من الجهل في الباطن ما لا يسعه كتاب.

ولقد رأيت كثيراً من المتعبدين وهو في مقام العجائز يسبِّح تسبيحات لا يجوز النطق بها، ويفعل في صلاته ما لم تردْ به السنَّة.

ولقد شاهدت رجلاً كان يقال له: حسين القزويني بجامع المنصور، وهو يمشي في الجامع مشياً كثيراً دائماً، فسألت: ما السبب في هذا المشي؟ فقيل لي: حتى لا ينام.

وهذه كلها حماقاتٌ أوجبها قلةُ العلم، لأنَّه إذا لم تأخذ النفس حظَّها من النَّوم اختلط العقل، وفات المراد من التعبُّد لبعد الفهم.

وكلُّ هذه الحوادث نشأت قليلاً قليلاً حتى تمكَّنت.

فأما الشِّرْب[1] الأول فلم يكن فيه من هذا شيء، وما كانت الصحابة تفعل شيئاً من هذه الأشياء، وقد كانوا يؤثرون ويأكلون دون الشِّبع، ويصبِرون إذا لم يجدوا.

فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله ﷺ وأصحابه، ففي ذلك الشِّفاء والمطلوب، ولا ينبغي أن يخلد العاقل إلى تقليد معظَّم شاع اسمه، فيقول: قال أبو يزيد، وقال الثوري، فإنَّ المقلِّد أعمى، وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا. فمَنْ فهم هذا المُشار إليه طلبَ الأفضل والأعلى، والله الموفق[2].

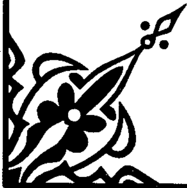
* * *

(١) «الشرب الأول»: الصدر والسلف.

(٢) جاء هذا في الفصل (١٦٢).

الباب الثاني

فصول
في إصلاح النفس والمجتمع



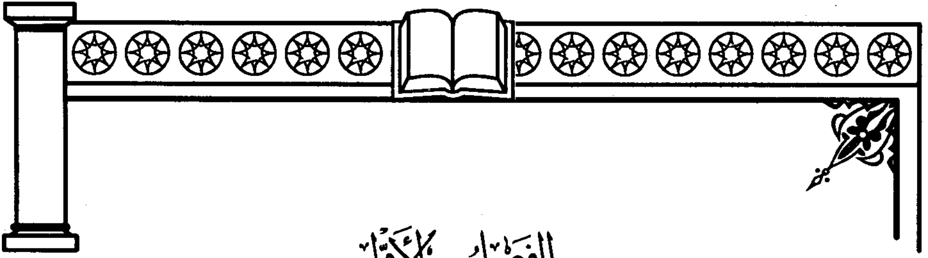
يجمع هذا الباب الموضوعات التالية:

١ ـ خواطر المؤلف التي تحدث فيها عن نفسه.

٢ ـ خواطره عن النفس الإنسانية بشكل عام.

٣ ـ خواطره في إصلاح الأسرة.

٤ ـ خواطره في إصلاح المجتمع.



الفصل الأول

حديث ابن الجوزي عن نفسه

تمهيد:

[جمعت في هذا الفصل الخواطر التي يتحدث فيها الإمام ابن الجوزي عن نفسه، حيث سجل بذلك جانباً من سيرته الذاتية.

وحديثه عن نفسه لا يعدّ مسألة شخصية تتعلق به خاصة، وإلا لم يكن لذكرها معنى، وإنما هي تجربة عالم يعرضها من خلال منظار مخبري.

فهو يطلعنا على دخائل نفسه، فيسبر أغوارها، ويسجل ترددها وحيرتها، ويسمعنا الحوار الذي يجري بينه وبينها عندما تميل إلى شهوة من الشهوات، المباحة، وهو يحاول أن يرتقي بها إلى مستوى الورع والإحسان..

إن التجارب النفسية، أمور خاصة، ولكن ابن الجوزي يضعها بين الأيدي، بعد أن يحللها ويسجل خطها البياني.. ويذكر تعليقه عليها، مما يجعلها أنموذجاً يمكن الاستفادة منه والقياس عليه.

إنها خواطر وتجارب غنية، نجد فيها الكثير الكثير مما يمكن استفادته منها: وقد يكون من المستحسن ذكر نماذج من ذلك:

● فهو يتحدث عن علوّ الهمة التي منحه الله إياها، وأنه عندما تكون عند إنسان ما، فينبغي أن يكون متعلقها أمراً سامياً له اتصال بالحياة الآخرة.

وهو يرثي لحال أولئك الذين كانت غاية همتهم أمراً دنيوياً، كالمتنبي، وأبي مسلم الخراساني، فقد كانت غاية همتهما طلب الإمارة والملك!!.

أما هو، فقد كانت همته مرتبطة بالحياة الآخرة، ومما يصب في هذا الاتجاه سعيه في طلب الخلفين من بعده: كتب العلم والتصانيف التي يستمر ثوابها والأولاد الذين يدعون له ويطلبون له الرحمة، وهكذا يكون في عداد الذين لا ينقطع عملهم بعد موتهم، والحديث الشريف يقول: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

● ويتحدث عن فضل العلم من خلال تجربته، ويجري مقارنة بينه وبين أقرانه من أقربائه الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا فيرى:

- أنه لم يفته مما نالوه، إلا ما لو حصل له لندم عليه.
- وأن عيشه من حيث الدنيا، كان أجود من عيشهم.
- وأن جاهه أعلى من جاههم.
- وأن ما ناله من معرفة العلم لا يقاوم.

● ويتحدث عن رغبة نفسه في العزلة، والإقبال على الله تعالى.

ويناقش نفسه في ذلك، فيذكر بعض مساوىء ذلك ومنه: فوات صلاة الجماعة، وفقدان مجالس العلم.

وأنه إن وافقها فذلك يعني أنه لم يستفد من علمه.

ثم يقرر أن العزلة إنما تكون عن الشر، لا عن الخير.

ومع كل ما سبق، فإنه عندما ينتهي من مجلس وعظه تنازعه نفسه إلى الزهد والانقطاع عن الخلق فيكون عاملاً بما يعظ به غيره.. ثم يستنتج أن ذلك النزوع من الشيطان لأنه رأى كثرة التائبين على يديه.. فأراد إبطال هذا الخير..

● وتحدث عن انتشار صيت مجالسه، مما جعل بعض الولاة يميل إليه، وجعل هو بالتالي يميل إلى هذا الوالي.. ففقد حلاوة المناجاة.

ثم استماله آخر.. فانبسط إليه فيما يباح باللجوء إلى التأويل..

ثم شعر بالمرض، وعجز عن مداواة نفسه، بينما هو يداوي الناس، فلجأ إلى الله.

ونتيجة لهذه التجربة الخطيرة، اتجه إلى إخوانه بالنصح بالبعد عن الترخص، ونبَّه على مصائد الشيطان التي تكمن وراء ذلك.

● وقد كثرت خواطره حول شرح عزمه بعض الأحيان على الترخص في الإقدام على ما تبيحه بعض المذاهب.. وكان من نتيجة ذلك قساوة قلبه.

وقد اتجه في معالجة هذه المشكلة إلى تذكير نفسه بتعداد نِعَم الله التي لا تحصى مما يغني عن ركوب قطار الرخص.

وقد كان في خواطره هذه على قدر كبير من الشجاعة حيث يصف لنا ما كان يدور في داخله من صراع بين شهوات النفس وبين محاولة ردِّها إلى طريق الإحسان الذي يعني الورع واتقاء الشبهات.

● لما كان الزمان أشرف شيء، فقد كان الإمام ابن الجوزي حريصاً على الوقت، وهذا ما جعله يستعيذ بالله من البطالين، ومنهم من يزور الإمام ويطيل عنده الجلوس ويضيع الوقت. ويشرح الإمام هنا الطرق التي يتخذها لاختصار تلك الزيارة، أو محاولة الاستفادة من الوقت الضائع أثناءها بما لا يحتاج إلى فكر مثل بري الأقلام، وحزم الدفاتر.

● ويتحدث عن ثقل التكليف، وكيف أن الجبال عجزت عن حمله، وأنه اشتكى مرة من ذلك، لا على سبيل الشكوى، وإنما للاسترواح.

ثم بيَّن أن المقصود بهذا التكليف هو تكليف العقل، وهو التكليف الحقيقي، لا تكليف البدن.

● والإنسان يدعو الله تعالى في وقت الشدائد، وقد تتأخر الإجابة، وهو ما حصل للإمام، فانزعجت نفسه من ذلك وقلقت.

ولكنه يحاور نفسه، ويقنعها بأجوبة متعددة، وبيان الاحتمالات والأسباب التي أخرت الإجابة.

● وإذا كان المقصود من العلم العمل، فقد رأى الإمام نفسه واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، وهذا ما دفعه إلى زجرها ومحاورتها قائلاً:

ماذا أفادك العلم؟

أين الخوف؟

أين القلق؟

أين الحذر؟

ثم يضع بين يديها قائمة بالأعمال التي كان عليها الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان.. حاثّاً إياها على سلوك طريقهم.

● أما محاسبة النفس، فلَه معها وقفات طويلة، ويذكر إحدى هذه الوقفات بقوله: تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن..

وقد ينقل عن العلماء الذين سبقوه محاسبتهم لأنفسهم، فيخاطبها بما خاطبوا به أنفسهم..

وفي هذه المحاسبات تظهر الأخطاء، وتظهر نعمه تعالى مقابل التقصير بالشكر والإنسان على نفسه بصيرة، ولئن موَّه على غيره، فلن يستطيع ذلك على نفسه.

إن أشدَّ أنواع المحاسبة هو محاسبة النفس..

تلك بعض الجوانب التي جاءت في خواطر الإمام في صدد حديثه عن نفسه، وهي مواعظ وردت بشكل أخبار، وهو نوع من الوعظ الذي كان ـ رحمه الله ـ يخاطب به الناس في حياته، فبقيت نبراته في هذه الأحرف لتبلغ رسالته بعد مماته.

إن هذا المسلك في الحديث عن النفس، وعرض وساوسها،

ومحاورتها وردها إلى الصواب. يذكرنا بالإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ عندما سجل تجربته الفريدة في كتابه «المنقذ من الضلال» حيث أجرى محاسبة لنفسه على كل أعماله فوجدها بعيدة عن الإخلاص.. غير نافعة في طريق الآخرة.. فقرر تغيير طريقة حياته كلها.. وقد فعل.

وقد يكون الإمام ابن الجوزي ممن تأثر بتجربة الإمام الغزالي، ولكنه رأى أن يسلك طريقاً أخرى للوصول إلى الغاية نفسها.

فقد كانت طريقته تقوم على المراقبة الدائمة للنفس، فكلما رأى منها ميلاً إلى الترخص في المباحات.. أو الأخذ ببعض الأقوال.. كان يناقشها ويقنعها بالمثابرة على السير في طريق الإحسان.

كان هذا التصحيح للمسلك إذن يجري على دفعات، مرة بعد مرة، كلما دعت الحاجة إليه.

وهذه الطريقة واقعية، وفي إطار الممكن لكل إنسان، ولذلك كانت مما يمكن الاستفادة منها لكل من أحب الثبات على طريق الاستقامة.

أما تجربة الغزالي فهي تجربة فريدة، قلَّ من يستطيع الإقدام عليها..

ونستطيع القول بأن ما سجله الإمام ابن الجوزي في حديثه عن نفسه ومع نفسه، أمر يمكن الاستفادة منه لكل من اطلع عليه، لأنه في حدود الواقع، وضمن إمكانات الناس. ولهذا آتى هذا العمل ثماره، فكم من متبع للإمام ابن الجوزي في طريقته تلك.. رحمه الله تعالى].

***

- ١ -
علو الهمة والأهداف السامية

أعطيت من علوِّ الهمَّة طرفاً، فأنا به في عذاب، ولا أقولُ ليته لم يكنْ، فإنَّه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادةَ اللذَّة بنقصان العقل.

ولقد رأيت أقواماً يصفون علوَّ هِمَمِهم، فتأمَّلتها، فإذا بها في فنٍّ واحد، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهمُّ، قال الرضي[1]:

ولكلِّ جسم في النحولِ بليةٌ   وبلاءُ جِسْمِي مِنْ تفاوتِ هِمَّتي

فنظرتُ فإذا غايةُ أمله الإمارة.

وكان أبو مسلم الخُراساني[2] في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل في ذلك، فقال: ذهنٌ صافٍ، وهمٌّ بعيد، ونفس تتوق إلى معالي الأمور.

قيل: فما الذي يُبرِدُ غليلك؟ قال: الظفر بالملك.

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا به قد ضيَّع أهمَّ المهمات، وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات؛ فكم فتك، وقتل حتى نال بعض مراده من لذَّات الدُّنيا، ثم لم يتنعمْ في ذلك غير ثماني سنين، ثم اغتيل ونسي تدبير العقل فقُتِل، ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول:

وفي الناس مَنْ يرضى بميسورِ عيشِه   ومركوبُهُ رجلاهُ والثوبُ جلْدُهُ
ولكنَّ قلباً بين جنبيَّ ماله   مَدَى ينتهي بي في مرادٍ أَحُدُّهُ
ترى جِسْمَه يُكْسَى شُفُوفاً[3] تَرُبُّهُ   فيختارُ أن يُكسى دُروعاً تَهُدُّهُ

فتأملت هذا الآخر فإذا نَهْمته[4] فيما يتعلق بالدُّنيا فحسب.

ونظرت إلى علوِّ همَّتي، فرأيتها عجباً، وذلك أنَّني أروم من العلم ما أتيقَّن أني لا أصلِ إليه، لأنَّني أحبُّ نيل كلِّ العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاءَ كلِّ فرد، وهذا أمر يعجِز العُمُرُ عن بعضه.

---

(١) هو: محمد بن الحسن، أبو الحسن، أشعر الطالبيين، توفي سنة (٤٠٦هـ).
(٢) هو: مؤسس الدولة العباسية وأحد كبار القادة، كان مقداماً داهية. توفي سنة (١٣٧هـ).
(٣) «شفوفاً»: هو الثوب الرقيق.
(٤) «نهمته»: شهوته.

فإنْ عرض لي ذو همَّة في فنٍّ قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره؛ فلا أعدُّ همته تامة.

مثل المُحدِّث فاته الفقه، والفقيه فاته علمُ الحديث؛ فلا أرى الرِّضا بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمَّة.

ثمَّ إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى وَرَع بشر، وزهادة معروف، وهذا مع مطالعة التصانيف، وإفادة الخلق، ومعاشرتهم، بعيدٌ.

ثم إنِّي أروم الغنى عن الخلق، وأستشرفُ الإفضال عليهم، والاشتغالُ بالعلم مانع من الكسب، وقبولُ المنن مما تأباه الهمَّة العالية.

ثم إنِّي أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، لبقاء الخَلَفين[١] نائبين عنِّي بعد التلف، وفي طلب ذلك ما فيه من شُغْل القلب المحبِّ للتفرُّد.

وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنَّه متعوِّد للترفه واللطف، وفي قلة المال مانع، وكلٌّ ذلك جمع بين أضداد.

فأين أنا وما وصفته مِنْ حال مَنْ كانت غاية همَّته الدُّنيا، وأنا لا أحبُّ أن يخدِش حصولُ شيءٍ من الدنيا وجهَ ديني بسبب، ولا أن يؤثِّر في علمي، ولا في عملي.

فواقلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع من إعادة العلم، وشُغْل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم.

وواأسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم.

ويا كَدَرَ الورع مع طلب ما لا بدَّ منه للعائلة.

غير أنِّي قد استسلمت لتعذيبي، ولعلَّ تهذيبي في تعذيبي؛ لأنَّ علو

---

(١) «الخلفين»: الخلفان هما: التصانيف والأولاد.

الهمَّة تطلبُ المعالي المقرِّبة إلى الحقِّ عزَّ وجلَّ، وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفسٌ في غير فائدة، وأن أبلغَ همِّي مراده، وإلا فـ «نيَّةُ المؤمن أبلغُ من عمله»[(١)].



- ٢ -
طريق العلم أفضل

تأمَّلت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهم في اكتساب الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتُني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.

ثم تأمَّلت حالي، فإذا عيشي في الدُّنيا أجودُ مِنْ عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نِلْتُه من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك.

فقلت له: أيها الجاهل! تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريقٌ أدَّت إلى صديق.

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصِّبا آخذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرج في طلب الحديث، وأقعدُ على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعينُ همَّتي لا ترى إلا لذةَ تحصيل العلم.

فأثمر ذلك عندي أنِّي عرِفت بكثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحوالِه وآدابِه، وأحوالِ أصحابه وتابعيهم، فصرْتُ في معرفة طريقه كابن أجود.

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٧٠).

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يُدْرَك بالعلم، حتى أنَّني أذكرُ في زمان الصَّبوة ووقتِ الغُلْمَة[1] والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفوس تتوقُ إليها توقان العَطْشان إلى الماء الزُّلال، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي مِنْ العلم من خوف الله عزَّ وجلَّ.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر، لقد كنت أخاف على نفسي من العُجْب، غير أنَّه عزَّ وجلَّ صانني، وعلَّمني، وأطلعني من أسرار العلم على معرفته، وإيثارِ الخلوة به، حتى أنه لو حضر معي معروفٌ وبِشْرٌ لرأيتهما زحمة.

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقلَّ الناس خيراً مني.

وتارةً يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته، وتارةً يحرمني ذلك مع سلامة بدني، ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب؛ لخرجت إما إلى العُجْب عند العمل، وإما إلى اليأس عند البطالة.

لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه.

وقد يغلِب الرَّجاء بقوة أسبابه؛ لأني رأيته قد ربَّاني منذ كنتُ طفلاً، فإنَّ أبي مات وأنا لا أعقِل، والأمُّ لم تلتفت إليَّ؛ فركز في طبعي حبُّ العلم.

وما زال يوقعني على المهمِّ فالمُهِمّ، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب، حتى قوَّم أمري.

وكم قد قصدني عدوٌّ فصدَّه عني، وإذ رأيته قد نصرني، وبصَّرني، ودافع عنِّي، ووهب لي قوي رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي، ولقد تاب على يديَّ في مجالس الذكر أكثرُ من مئتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مئتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن

---

(١) «الغلمة»: شهوة الوقاع.

تسيل، ويحقُّ لمن تلمَّح هذا الإنعام أن يرجو التَّمَام، وربما لاحت أسبابُ الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رقَّ قلبه، أو دمعَت عينُه، فقلت لنفسي: كيف بكِ إن نجوا وهلكت؟! فصحت بلسان وجدي: إلٰهي وسيدي! إن قضيت عليَّ بالعذاب غداً فلا تعلمْهُم بعذابي صيانةً لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا عذَّبَ مَنْ دلّ عليه. إلٰهي! قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل ابن أبيّ المنافق، فقال: **«لا يتحدَّث الناس أنَّ محمداً يقتل أصحابه»**[1].

إلٰهي! فاحفظ حُسْنَ عقائِدهم فيَّ بكرمك أن تعلمَهم بعذاب الدليل عليك. حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي[2]!.



- ٣ -
خطر العزلة

رأيت نفسي كلَّما صفا فكرُها، أو اتَّعظتْ بدارج[3]، تتحرك همتها في طلب العزلة، والإقبالِ على معاملة الله تعالى.

فقلت لها يوماً: وقد كلمتني في ذلك؛ حدثيني ما مقصودُك؟ وما نهاية مطلوبِك؟.

أتراكِ تريدين منِّي أن أسكن قفراً لا أنيس به، فتفوتَني صلاةُ الجماعة، ويضيعَ مني ما قد علمته لفقد من أعلِّمه، وأن آكلَ الجشب[4] الذي لم

(١) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).
(٢) جاء هذا في الفصل (١٦٨).
(٣) «دارج»: ميت. يُقال: درج القوم: انقرضوا.
(٤) «الجشب»: الغليظ الخشن.

أتعوَّده، وأن ألبَس الخَشِنَ الذي لا أطيقه، فلا أدري من كَرْب محمولي أين أنا؟.

وأن أتشاغل عن طلب ذريةٍ تتعبَّد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب.

بالله! ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك؟ وأنا أُعرِّفكِ غَلَطَ ما وقع لك بالعلم.

اعلمي أنَّ البدن مطية، والمطيةُ إذا لم يُرْفَقْ بها لم تصل براكبها إلى المنزل، وليس مرادي بالرِّفق الإكثارُ من الشَّهوات، وإنما أعني أخذَ البُلْغَة[1] الصَّالحة للبدن، فحينئذٍ يصفو الفكر، ويصحُّ العقل، ويقوى الذِّهن.

ألا تري إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذِّهن في قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»**[2]، وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجري مجراه من كونه حاقناً[3]، أو حاقباً[4]، وهل الطَّبع إلا ككلبٍ يشغَلُه الأكل، فإذا رُمِيَ له ما يتشاغل به طاب له الأكل.

فأمَّا الانفراد، والعزلة: فعن الشرِّ لا عن الخير، ولو كان فيها لك وقع خير لنقل عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه رضي الله عنهم.

هيهات! لقد عرفت أنَّ أقواماً دام بهم التقلُّلُ[5] إلى أن تغيَّر فكرُهم، وقوي الخلطُ عليهم، فاستوحشوا من الناس.

ومنهم من اجتمعت له من المآكل الرديَّة أخلاطٌ مجَّة، فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل، وهو يظنُّ ذلك من إمداد اللطف، وإذا به من سوء الهضم.

وفيهم من ترقَّى به الخَلْطُ إلى رؤية الأشباح فيظنُّها الملائكة.

---

(١) «البلغة»: الكفاية، وما تصل به إلى المراد من غير زيادة.
(٢) رواه أبو داود (٣٥٨٩).
(٣) «حاقناً»: حابساً بوله.
(٤) «حاقباً»: حابساً غائطه.
(٥) «التقلل»: أي من الطعام.

فاللَّهَ اللَّهَ في العلم! واللَّهَ اللَّهَ في العقل! فإنَّ نور العقل لا ينبغي أن يتعرض بإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه، فإذا حُفظا حَفظا وظائف الزَّمان، ودفعا ما يؤذي، وجلبا ما يصلح، وصارت القوانين مستقيمةً في المطعم، والمشرب، والمخالطة.

فقالت لي النفس: فوظِّفْ لي وظيفةً، وأحسبني مريضاً قد كتبت له شَرْبَةً. فقلت لها: قد دللتُك على العلم، وهو طبيب ملازم؛ يصف كلَّ لحظةٍ لكلِّ داءٍ يعرض دواء يلائم.

وفي الجملة ينبغي لك ملازمةُ تقوى الله عزَّ وجلَّ في المنطق والنظر، وجميع الجوارح، وتحققُ الحلال في المطعم، وإيداعُ كلِّ لحظة ما يصلُح لها من الخير، ومناهبةُ الزَّمان[1] في الأفضل، ومجانبةُ ما يؤذِّي إلى ما يؤذي من نقص رِبْحٍ أو وقوعِ خُسْران.

ولا تعملي عملاً إلا بعد تقديم النِّيَّة.

وتأهَّبي لمزعج الموت فكأنْ قَدْ[2]، وما عندك من مجيئه في أيِّ وقت يكون.

ولا تتعرضي لمصالح البدن، بل وفريها عليه، وناوليه إيَّاها على قانون الصَّواب، لا على مقتضى الهوى، فإنَّ إصلاح البدن سببٌ لإصلاح الدِّين.

ودعي الرعونة التي يدلُّ عليها الجهلُ لا العلمُ؛ من قول النَّفس: فلانٌ يأكل الخلَّ والبقل، وفلان لا ينامُ الليل، فاحملي ما تطيقين، فإنَّ البهيمة إذا أقبلت إلى نهرٍ، أو ساقيةٍ فضُرِبتْ لتقفز؛ لم تفعلْ حتى تزنَ نفسها، فإنْ علمت فيها قوةَ الطَّفرِ[3] طفَرتْ، وإن علمت أنَّها لا تطيق لم تفعل، ولو قُتِلَتْ.

---

(١) «مناهبة الزمان»: أي مسابقته.

(٢) «فكأن قد»: أي كأنه قد وقع.

(٣) «الطفر»: الوثب في ارتفاع.

وليس كل الأبدان تتساوى في الإطاقة، ولقد حمَل أقوامٌ من المجاهدات في بداياتهم أشياء أوجبت أمراضاً قطعتهم عن خير، وتسخَّطت قلوبهم بوقوعها. فعليك بالعلم؛ فإنَّه شفاءٌ من كلِّ داء، والله الموفق[1].



- ٤ -
خطر العزلة على مجالس العلم

ما زالت نفسي تُنازعني بما يوجبه مجلسُ الوعظ وتوبة التائبين ورؤية الزاهدين إلى الزهد، والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة.

فتأمَّلت ذلك، فوجدت عمومه من الشيطان؛ فإنَّ الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلسٌ من خَلْقٍ لا يُحْصَوْن، يبكون، ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا، وربما اتفق خمسون ومئة.

ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مئة، وعمومهم صبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك في المعاصي.

فكأنَّ الشيطان لبعد غوره في الشرِّ رآني أجتذب إلـيّ من اجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن أجتذبه من يده، ولقد حسَّن إلـيَّ الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنُّع للخلق.

فقلت: أما زخرفةُ الألفاظ وتزويقُها، وإخراجُ المعنى من مُسْتَحْسَنِ العبارة ففضيلةٌ، لا رذيلة، وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله!.

ثم رأيته يريني في التزهد قطع أسباب؛ ظاهرها الإباحة من الاكتساب، فقلت له: فإن طاب لي الزهد، وتمكنت من العزلة، فنفد ما بيدي، أو

---

(١) جاء هذا في الفصل (٤٨).

احتاج بعض عائلتي، ألست أعود القهقرى؟ فدعني أجمع ما يسدُّ خَلَّتي، ويصونني عن مسألة الناس، فإن مدّ عمري كان نعم السبب؛ وإلا كان للعائلة، ولا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم.

وإنَّما الصوابُ توطئةُ المضجَع قبل النوم، وجمعُ المال الساد للخَلَّة قبل الكِبَر، أخذاً بالحزم.

وقد قال الرسول ﷺ: **«لأن تترك ورثتك أغنياء خيرٌ لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»**[(١)]، وقال: **«نعم المال الصَّالح للرَّجل الصَّالح»**[(٢)].

وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشَّرّ لا عن الخير، والعزلة عن الشَّرّ واجبةٌ على كل حال.

وأما تعليمُ الطالبين وهدايةُ المريدين؛ فإنَّه عبادة العالم، وتصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ فذلك بَذْرٌ يكثر رَيْعُه، ويمتدُّ زمان نفعه.

فعليك بالنظر في الشِّرب الأول، فكن مع الشِّرب المقدم؛ وهم الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم؛ فهل نُقِل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم؟ والانفراد عن الخَلْق.

وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخَلْق، وحثُّهم على الخير، ونهيَهُم عن الشرّ؟[(٣)].



(١) رواه البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) رواه أحمد (١٩٧/٤ و ٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩).

(٣) جاء هذا في الفصل (٢٤).

- ٥ -
خطر مخالطة الولاة

كنت في بداية الصَّبوة قد أُلهِمْتُ سلوكَ طريق الزُّهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلـيَّ الخَلوة، فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عينُ بصيرتي قويةَ الحدة تتأسَّف على لحظةٍ تمضي في غير طاعة، وتبادرُ الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوعُ أنسٍ وحلاوةُ مناجاة.

فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتَّقي مخالطتَه، ومطاعمَه لخوف الشُّبهات، وكانت حالتي قريبة.

ثم جاء التأويل فانبسطتُ فيما يُباح، فعُدم ما كنت أجد. وصارت المخالطة توجب ظلمةً في القلب إلى أن عُدِمِ النُّورُ كلُّه، فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرجُ مفلساً فيم بيني وبين حالي.

وكثر ضجيجي من مرضي، وعجِزتُ عن طبِّ نفسي، فلجأت إلى الله، وتوسلتُ في صلاحي، فاجتذبني لطفُ مولاي بي إلى الخَلوة على كراهةٍ مني، ورَدَّ قلبي علـيَّ بعد نفوره عني، وأراني عيب ما كنت أؤثره.

فأفقتُ من مرض غفلتي! وقلت في مناجاة خلوتي: سيدي كيف أقدر على شكرك؟ وبأي لسان أنطق بمدحك؟ إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبهتني من رَقْدَتي، وأصلحتَ حالي على كره من طبعي، فما أربحني فيما سلب مني؛ إذ كانت ثمرتُه الملجأ إليك، وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي على الخلوة بك، وما أغناني إذ أفقرتني إليك، آهِ على زمانٍ ضاع في غير خدمتك! أسفاً لوقتٍ مضى في غير طاعتك.

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طولَ الليل، وإذا

انسلخ عنِّي النهارُ لا يوجعني ضياعُ ذلك اليوم، وما علمت أنَّ عدم الإحساس لقوة المرض.

فالآن قد هبَّت نسائم العافية، فأحسَسْتُ بالألم فاستدللتُ على الصِّحة؛ فيا عظيم الإنعام تمم لي العافية.

يا من يقرأ تحذيري من التخليط! فإنِّي وإن كنت خُنْتُ نفسي بالفعل نصيحٌ لإخواني بالقول.

احذروا إخواني من الترخُّص فيما لا يؤمن فساده؛ فإنَّ الشيطان يزيِّنُ المباح في أول مرتبة، ثم يجر إلى الجُناح، فتلمحوا المآل، وافهموا الحال، وربما أراكم الغاية الصالحة، وكان في الطريق إليها نوع مخالفة، فيكفي الاعتبار في تلك الحال بأبيكم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]؟ إنما تأمل آدم الغاية، وهي الخلد، ولكنَّه غلط في الطريق.

وهذا أعجبُ مصائد إبليس يصيد بها العلماء، يتأوَّلون لعواقب المصالح، فيستعجلون ضررَ المفاسد؛ مثاله: أن يقول للعالم: ادخل على هذا الظالم، فاشفع في مظلوم، فيستعجل الداخلُ رؤية المنكرات، ويتزلزلُ دينه، وربما وقع في شركٍ صار به أظلمَ من ذلك الظالم.

فمن لم يثق بدينه؛ فليحذر من المصائد، فإنَّها خفية، وأسلم ما للجبان العُزْلة[1]، خصوصاً في زمان قد مات فيه المعروف، وعاش المنكر، ولم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة؛ فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز، ولم يَقْدِرْ على جذبهم مما هم فيه.

ثم مَنْ تأمَّل حال العلماءَ الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين مِنْ نَفْعِ العلم، قد صاروا كالشُّرَط.

فليس إلا العزلةُ عن الخَلْق، والإعراضُ عن كل تأويل فاسد في المخالطة؛ ولأن أنفعَ نفسي وحدي خيرٌ لي من أن أنفع غيري، وأتضرر.

---

(١) المراد بالعزلة: العزلة عن الولاة والحكام، كما يدل السياق العام.

فالحذرَ الحذرَ من خوادع التأويلات، وفواسدِ الفتاوى! والصبرَ الصبرَ على ما توجبه العزلة؛ فإنَّه انِ انفردْتَ بمولاك فتح لك بابَ معرفته، فهان كلُّ صعب، وطاب كلُّ مر، وتيسَّر كلُّ عُسْر، وحصلتَ على كل مطلوب، والله الموفق بفضله، ولا حول ولا قوة إلا به[1].

❋ ❋ ❋

- ٦ -
الرخَص وقسوة القلب

ترخَّصت في شيءٍ يجوز في بعض المذاهب، فوجدت في قلبي قسوةً عظيمةً، وتخايل لي نوعُ طردٍ عن الباب، وبُعْدٌ وظلمةٌ تكاثفت. فقالت نفسي: ما هذا؟ أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء! فقلت لها: يا نفسَ السَّوْء جوابُك من وجهين:

أحدهما: أنَّك تأولتِ ما لا تعتقدين؛ فلو اسْتُفْتِيتي لم تُفْتِ بما فعلتِ! قالت: لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته! قلت: إلا أنَّ اعتقادك ما ترضينه لغيرك في الفتوى.

والثاني: أنَّه ينبغي لكِ الفرحُ بما وجدتِ من الظُّلمة عقيب ذلك؛ لأنه لولا نورٌ في قلبك ما أثر مثل هذا عندك.

قالت: فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب! قلت: فاعزمي على التَّرك، وقدِّري ما تركت جائزاً بالإجماع، وعدِّي هجرَه ورعاً، وقد سلمت[2].

❋ ❋ ❋

(١) جاء هذا في الفصل (٤٦).
(٢) جاء هذا في الفصل (١٥٦).

وأمكنني تحصيلُ شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص؛ فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء؛ فكلما استنارت لي طريق التحصيل؛ تجدَّد في قلبي ظلمة.

وما زلت أغلب نفسي تارةً وتغلبني أخرى، ثم تدَّعي الحاجةَ إلى تحصيل ما لا بدَّ لها منه، وتقول: فما أتعدَّى الكسب المباح في الظاهر. فقلت لها: أو ليس الورعُ يمنع من هذا؟ قالت: بلى! قلت: أليس القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلى! قلت: فلا خيرَ لك في شيءٍ هذا ثمرتُه!.

فخلوت يوماً بنفسي، فقلت لها: ويحك! اسمعي أحدثك: إنْ جمعتِ شيئاً من الدُّنيا من وجهٍ فيه شبهة، أفأنت على يقينٍ من إنفاقه؟ قالت: لا! قلت: فالمحنة أن يحظى به الغير، ولا تنالين إلا الكَدَر العاجِل، والوِزْرَ الذي لا يُؤمَن.

ويحك! اتركي هذا الذي يمنع منه الورعُ لأجل الله، فعامليه بتركه، وكأنك لا تريدين أن تتركي إلا ما هو محرَّم فقط، أو ما لا يصِحُّ وجهه، أو ما سمعت أنَّ **«من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه»**[1].

أما لك عبرة في أقوام جمعوا فحازه سواهم؟ وأملوا فما بلغوا مناهم، كم مِنْ عالم جمع كتباً كثيرة ما انتفع بها، وكم من منتفع ما عنده عشرةُ أجزاء. كم من طيِّبِ العيش لا يملك دينارين، وكم من ذي قناطير مُنَغَّص، أما لك فطنة تتلمح أحوال مَن يترخَّص من وجهٍ، فيُسْلَبُ منه مِنْ أوجه؟!.

ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها، فأنفق في سنته أضعافَ ما ترخَّص في كسبه، والمتَّقي معافى.

فضجتِ النفس من لومي، وقالت: إذا لم أتعدَّ واجب الشرع، فما الذي تريد مني؟ فقلت لها: أضِنُّ بك عن الغُبْنِ، وأنت أعرف بباطن أمرك.

---

(١) رواه أحمد (٣٦٣/٥).

قالت: فقل لي ما أصنع؟ قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثِّلي نفسك بحضرة مُعَظَّم من الخلق، فإنك بين يدي الملك الأعظم يرى من باطنك ما لا يراه المعظَّمون من ظاهرك؛ فخذي بالأحوط، واحذري من الترخُّص في بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى، فإن وقع الطَّبع مما تلقين، فقولي له: مهلاً، فما انقضت مدَّةُ الإشارة، والله مرشدُك إلى التَّحقيق، ومعينُك بالتوفيق(١).



ونازعتني نفسي إلى أمرٍ مكروه في الشَّرع، وجعلتْ تنصِب لي التأولات، وتدفعُ الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجَّة ظاهرةٌ على الكراهة.

فلجأتُ إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلتُ على القراءة، وكان درسي قد بلغ إلى سورة يوسف، فافتتحتها ـ وذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ما أقرأ ـ فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، انتبهت لها، وكأني خوطبت بها، فأفقت من تلك السَّكرة.

فقلت: يا نفس أفهمت!؟ هذا حرٌّ بيع ظلماً، فراعى حقَّ من أحسن إليه، وسمَّاه مالكاً، وإن لم يكن عليه ملك، فقال: إنَّه ربي، ثم زاد في بيان موجب كفِّ كفِّه عما يؤذيه، فقال: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣].

فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك، وأنَّ ستره عليك الزَّلل أكثرُ من عدد الحصى.

أفما تذكرين كيف رباك، وعلمك، ورزقك، ودافع عنك، ساق الخير إليك، وهداك أقوم طريق، ونجَّاك من كل كيد، وضمَّ إلى حسن الصورة الظاهرة جودةَ الذِّهن الباطن، وسهَّل لك مدارك العلوم حتى نِلْتَ

(١) جاء هذا في الفصل (٩٩).

في قصير الزَّمان ما لم ينلْه غيرك في طويله، وجلَّى في عَرْصة[1] لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحَك، فتلقَّوْها منك بحسن الظن، وساق رزقك بلا كُلفة تكلُّف، ولا كَدَرٍ من رغد غير نزر[2].

فوالله ما أدري أي نعمة عليك أن أشرح لك: حسن الصورة وصحة الآلات، أم سلامة المزاج واعتدال التركيب، أم لطف الطبع الخالي عن خساسة، أم إلهام الرشاد منذ الصغر، أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزَّلل، أم تحبيب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظَّم، ولا انخراط في سِلْكِ مُبتدع: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كم كائدٍ نصب لك المكائد، فوقاك، كم عدوٍّ حطَّ منك بالذمِّ، فرقاك، كم أعطَش من شراب الأمانيِّ خلقاً، وسقاك، كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك، وأبقاك.

فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن، محروسة الدِّين، في تزيد من العلم وبلوغ الأمل، فإن مُنعْتِ مراداً، فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع حتى يقع اليقين بأنَّ المنع أصلح.

ولو ذهبتُ أعدُّ من هذه النعم ـ ما سنح ذكره ـ امتلأت الطّروس[3] ولم تنقطع الكتابة، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح، فكيف يحسن بك التعرض بما يكرهه؟ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣][4].



(١) «العرصة»: البقعة الواسعة والساحة.
(٢) «نزر»: قليل.
(٣) «الطروس»: الصحف.
(٤) جاء هذا في الفصل (١٤٢).

- ٧ -

أدب الزيارة وقيمة الوقت

أعوذ بالله من صحبة البطَّالين. لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردُّد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، ويتخلَّله غِيْبة.

وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربما طلبه المزورُ، وتشوَّق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التَّهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزُجون ذلك بما ذكرته مِنْ تضييع الزَّمان.

فلما رأيتُ أنَّ الزَّمان أشرفُ شيء، والواجب انتهاؤه بفعل الخير؛ كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرتُ عليهم، وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم؛ ضاع الزمان.

فصرت أدافع باللقاء جَهْدي، فإذا غُلِبْتُ؛ قصّرْتُ في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً؛ فجعلت من المستعد للقائهم قطعُ الكاغد[1]، وبريُ الأقلام، وحزمُ الدفاتر، فإنَّ هذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فكرٍ وحضور قلب، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيءٌ من وقتي.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه!.

ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة؛ فمنهم من أغناه الله عن الكسب بكثرة ماله؛ فهو يقعد في السُّوق أكثرَ النَّهار ينظر إلى الناس، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكر. ومنهم من يخلو بلعب الشَّطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرُّخص إلى غير ذلك.

---

(١) «الكاغد»: القرطاس.

فعلمتُ: أنَّ الله تعالى لم يُطْلِعْ على شرف العُمُر ومعرفةِ قدر أوقات العافية إلا مَنْ وفقه وألهمه اغتنام ذلك: ﴿وَمَا يُلَقَّنهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥][١].



- ٨ -
طول العمر وحسن العمل

دعوتُ يوماً، فقلت: اللَّهم بلغني آمالي من العلم والعمل! وأطل عمري لأبلغ ما أحبُّ من ذلك! فعارضني وسواسٌ من إبليس، فقال: ثم ماذا أليس الموت، فما الذي ينفع طول الحياة؟! فقلت له: يا أبله! لو فهمت ما تحت سؤالي، علمت أنه ليس بعبث، أليس في كلِّ يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثُر ثمارُ غرسي، فأشكر يوم حصادي؟.

أفيسرُّني أنِّي مت منذ عشرين سنة؟ لا والله! لأني ما كنت أعرف الله تعالى عُشْر معرفتي به اليوم، وكلُّ ذلك ثمرةُ الحياة؛ التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع[٢] البصيرة، واطَّلَعْتُ على علوم زاد بها قدْري، وتجوهرتْ بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين، وقد قال لسيد المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزيد المؤمن عمرُهُ إلا خيراً**»[٣].

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: قال

(١) جاء هذا في الفصل (١٦٤).
(٢) «يفاع»: المرتفع من كل شيء.
(٣) رواه مسلم (٢٦٨٢).

رسول الله ﷺ: **«إنَّ من السعادة أن يطول عُمُرُ العبد، ويرزقه الله عزَّ وجلَّ الإنابة»**[١]، فيا ليتني قَدَرْتُ على عمر نوح، فإنَّ العلم كثير، وكلَّما حصل منه حاصلٌ؛ رفع، ونفع[٢].



- ٩ -
سؤال العفو

رأيت من نفسي عجباً تسأل الله عزَّ وجلَّ حاجاتها، وتنسى جناياتها.

فقلت: يا نفسَ السوء! أو مثلك ينطِق، فإن نطَق فينبغي أن يكون لسؤال العفو فحسب! فقالت: فمِمَّن أطلبُ مراداتي؟ قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة، وانطقي! كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة لا يجوز له أن يأكل، فإن قيل لنا: أفيموت؟ قلنا: لا، بل يتوب ويأكل!.

فاللَّهَ اللَّهَ من جراءة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك، كما روي: **«مَنْ شغله ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**[٣].

وقد كان بِشْرُ الحافي يبسط يديه للسؤال، ثم يُسْبِلُهما ويقول: مثلي لا يسأل؛ ما أبقت الذنوب لي وجهاً؛ وهذا يختص ببشر لقوة معرفته. كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحاً فاستحيا الزلل، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد، فافهم ما ذكرته، وتشاغلْ بالتوبة من الزَّلل.

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٤٢).
(٢) جاء هذا في الفصل (٦٦).
(٣) رواه الترمذي (٢٩٢٦).

ثمَّ العجب من سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهماً من الدنيا؛ بل فضول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدِّين، مثل ما تسأل صلاح الدنيا.

فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جُرُف، وليكنْ حزنُك على زلاَّتك شاغلاً لك عن مراداتك.

فقد كان الحسنُ البصريُّ شديدَ الخوف؛ فلمَّا قيل له في ذلك؛ قال: وما يؤمنني أن يكونَ اطَّلع عليَّ في بعض ذنوبي، فقال: اذهب، لا غفرت لك[1][2]!



- ١٠ -

بين الشهوة والورع

قدَرْتُ في بعض الأيام على شهوةٍ للنفس هي عندها أحلى من الماء الزلال في فم الصَّادي[3]، وقال التأويل: ما ها هنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع، وكان ظاهر الأمر امتناعَ الجواز، فتردَّدْتُ بين الأمرين، فمنعت النفس عن ذلك؛ فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشَّرعي.

فقلت لها: يا نفس! والله ما من سبيل إلا ما لا يؤمن من دونه؟ فتقلقلتْ؛ فصحتُ بها: كم وافقتك في مرادٍ ذهبت لذَّته، وبقي التأسُّف على فعله؛ فقدِّري بلوغ الغرض من هذا المراد، أليس النَّدم يبقى في مجال اللذة أضعافَ زمانها؟ فقالت: كيف أصنع؟ فقلت:

صَبَرْتُ ولا والله ما بي جلادةٌ على الـ ـحبِّ لكنني صَبَرْتُ على الرَّغم

(١) رواه أحمد في الزهد (ص ٣٤١).
(٢) جاء هذا في الفصل (٨٥).
(٣) «الصادي»: من اشتد عطشه.

وها أنا أنتظر من الله عزَّ وجلَّ حُسْنَ الجزاء على هذا الفعل، وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء، أرجو أن أرى حُسْنَ الجزاء على الصَّبر، فأسطّرَه فيه إن شاء الله تعالى؛ فإنَّه قد يعجِّل جزاءَ الصبر وقد يؤخره، فإن عجَّل سطَّرتُه، وإن أخَّر فما أشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه، فإنَّه «**من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه**». والله إني ما تركته إلا لله تعالى! ويكفيني تركه ذخيرة، حتى لو قيل لي: أتذكر يوماً آثرت الله على هواك؟ قلت: يوم كذا وكذا.

فافتخري أيتها النفس بتوفيقك، واحمدي مَنْ وفَّقك، فكم من خذل سواك، واحذري أن تخذلي في مثلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

وكان هذا في سنة إحدى وستين وخمسمئة، فلما دخلتْ سنة خمسة وستين، عُوضَتُ خيراً من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه وَرَعٌ ولا غيرُه؛ فقلت: هذا جزاء التَّرك لأجل الله سبحانه في الدُّنيا، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧]، والحمد لله[1].



- ١١ -
التقوى وشرف الذكر

تراعنتْ[2] عليّ نفسي في طلبها شيئاً من أغراضها بتأويلٍ فاسد؛ فقلت لها: بالله عليكِ تصبَّري! في المعْبر شُغلٌ بحذرِ الغرقِ من كثرة الموج، عن التنزُّه في عجائب البحر.

إذا همَمْتِ بفعلٍ؛ فقدّري حصوله، ثم تلمَّحي عواقبه، وما تجتنين من

(١) جاء هذا في الفصل (١٣٨).
(٢) «تراعنت»: الرعونة: هي الحماقة.

ثمراته؛ فأقلُّ ذلك الندم على ما فعلتِ، ولا يؤمن أن يُثْمِرَ غضب الحقِّ عزَّ وجلَّ وإعراضه عنك، فأفٍّ للقاطع عنه، ولو كان الجنة.

ثم اعلمي أيتها النفس أنه ما يمضي شيءٌ جُزافاً، وأنَّ ميزان العدل تبينُ فيه الذرَّة.

فتلمَّحي الأمواتَ والأحياء، وانظري إلى مَنْ نُشِر ذكرهُ بالخير والشرّ، وزيادةِ ذلك ونقصانِه، فسبحانَ مَنْ أظهرَ دليلَ الخلوات على أربابها، حتى أنَّ حباتِ القلوب تتعلقُ بأهل الخير، وتنفِر من أهل الشرّ، من غير مطالعةٍ لشيءٍ من أعمال الكل.

قال إبليس: أو تتركُ مرادَك لأجل الخلق؟.

قلت: لا، إنَّما هذا بعض الثَّمرات الحاصلة من طريق الغرض، ونحن نرى من يمشي ثلاثين فرسخاً ليقال ساع، فالمتَّقي قد نال شرف الذِّكر وإن لم يقصد نيلَ ذلك؛ مترجحاً له في وزن الجزاء ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قالت النفس: لقد أمرتني بالصَّبر على العذاب؛ لأنَّ ترك الأغراض عذاب. قلت: لك عن الغرض عِوَض، ومن كلِّ متروكٍ بدل، وأنتِ في مقامِ مُسْتَعبد، ولا يصحُّ للأجير أن يلبسَ ثياب الراحة في زمان الاستئجار، وكلُّ زمان المتَّقي نهارُ صوم، ومن خاف العقاب؛ ترك المُشتهى، ومن رام القرب؛ استعمل الوَرَع، وللصَّبر حلاوةٌ تبين في العواقب(١).



- ١٢ -

التقوى هي المخرج

ضاق بي أمرٌ أوجب غمّاً لازماً دائماً، وأخذتُ أبالغ في الفِكر في الخلاص من هذه الهموم بكلِّ حيلة، وبكلِّ وجه؛ فما رأيتُ طريقاً للخلاص.

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٢٥).

فعرَضَتْ لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمتُ: أنَّ التقوى سببٌ للمَخرج من كلِّ غم؛ فما كان إلا أن هممت بتحقيق التَّقوى، فوجدت المخرج.

فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكَّل، أو يتسبَّب، أو يتفكَّر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال أمره؛ فإنَّ ذلك سببٌ لفتح كلِّ مُرتج[1]، ثم أَعجَبُه أن يكون من حيث لم يقدِّره المتفكِّر المحتال المدبِّر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتَّقي أن يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كافيه، فلا يعلِّق قلبه بالأسباب، فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣][2].



- ١٣ -
دواعي إجابة الدعاء

عرض لي أمر يحتاج إلى سؤال الله عزَّ وجلَّ ودعائه، فدعوت، وسألت، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معي، فرأيت نوعاً من أثر الإجابة.

فقالت لي نفسي: هذا بسؤال ذلك العبد، لا بسؤالك. فقلت لها: أمَّا أنا فإني أعرف من نفسي من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذي أُجِبْت، لأنَّ هذا الدَّاعي الصَّالح سليمٌ مما أظنه من نفسي؛ إذ معي انكسارُ تقصيري، ومعه الفرح بمعاملته، وربما كان الاعتراف بالتقصير أنجحَ في الحوائج.

على أنني أنا وهو نطلب من الفضل لا بأعمالنا، فإذا وقفت أنا على

(١) «مرتج»: مغلق.
(٢) جاء هذا في الفصل (١٣٠).

قَدَم الانكسار معترفاً بذنوبي، وقلت: أعطوني بفضلكم فما لي في سؤالي شيءٌ أمتّ به، وربما تلمَّح ذاك حسنَ عمله، وكان صادّاً له.

فلا تكسريني أيتها النفس، فيكفيني كسر علمي بي لي، ومعي من العلم الموجب للأدب والاعتراف بالتقصير، وشدة الفقر إلى ما سألت، ويقيني بفضل المطلوب عنه، ما ليس مع ذلك العابد، فبارك الله في عبادته، فربما كان اعترافي بتقصيري أوفى[1].



- ١٤ -
التكليف الحقيقي

قلت يوماً في مجلسي: لو أنَّ الجبال حملَتْ ما حملتُ لعجِزت.

فلما عدتُ إلى منزلي، قالت ليَ النَّفس: كيف قلت هذا؟! وربما أوهِمَ الناسُ أن بك بلاءً، وأنت في عافية في نفسك وأهلك! وهل الذي حملت إلا التكليف الذي يحمله الخلق كلهم؟ فما وجه هذه الشكوى؟.

فأجبتها: إنني لما عجزت عما حملت؛ قلت هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى، ولكن للاسترواح.

وقد قال كثيرٌ من الصحابة والتابعين قبلي: ليتنا لم نخلق! وما ذاك إلا لأثقال عجزوا عنها، ثم مَنْ ظنَّ أن التكاليف سهلةٌ فما عرفها.

أترى يظنُّ الظانُّ أنَّ التكليف غسلُ الأعضاء برطلٍ من الماء، أو الوقوفُ في محرابٍ لأداء ركعتين؟ هيهات! هذا أسهل التكليف.

وإن التكليف[2] هو الذي عجِزتْ عنه[3] الجبال، ومن جملته: أنني

---

(١) جاء هذا في الفصل (٦٤).

(٢) «التكليف»: يعني: التكليف الحقيقي.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل، ألزمت العقل الإذعان للمقدَّر، فكان من أصعب التكليف، وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه كإيلام الأطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأن المقدِّرَ لذلك والآمرَ به أرحمُ الراحمين، فهذا مما يتحير العقل فيه، فيكون تكليفهُ التسليم، وتركُ الاعتراض.

فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل!.

ولو شرحت هذا لطال غير أني أعتذِر عما قلته، فأقول عن نفسي - وما يلزمني حال غيري -: إنني رجلٌ حُبِّبَ إلـيَّ العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت به، ثم لم يحبَّبْ إلـيَّ فنٌّ واحدٌ منه، بل فنونه، ثم لا تقتصر همتي في فنٍّ على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يسع، والعمر أضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات.

ثم إنَّ العلم دلَّني على معرفة المعبود، وحثَّني على خدمته.

ثم صاحت بي الأدلة عليه إليه، فوقفت بين يديه، فرأيته في نعتِه وعرفته بصفاته، وعاينتْ بصيرتي من ألطافه ما دعاني إلى الهَيَمَانِ[1] في محبَّته، وحرَّكني إلى التخلِّي لخدمته، وصار يملكني أمر كالوَجْد كلما ذكرته، فعادت خلوتي في خدمتي له أحلى عندي من كل حلاوة.

فكلما ملت إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخلوة؛ صاح بي العلم: أين تمضي؟ أتعرض عني وأنا سبب معرفتك؟.

فأقول له: إنما كنت دليلاً، وبعد الوصول يُستغنى عن الدليل.

قال: هيهات! كلما زدت زادت معرفتك بمحبوبك، وفهمت كيف القربُ منه، ودليل هذا؛ أنك تعلم غداً أنك اليوم في نقصان، أو ما سمعته يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

(١) «الهيمان»: هو الشَّغَف في الحب وشدة الوجد.

ثم ألست تبغي القرب منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبُّد، لعلمهم أنَّ ذلك آثرُ عند حبيبهم؟ أمَا قال الرسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «**لأن يهديَ الله بك رجلاً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم**»[1].



- ١٥ -
حكمة تأخير إجابة الدعاء

نزلتْ فـيَّ شدَّةٌ، وأكثرت من الدُّعاء أطلبُ الفرج والراحة، وتأَخَّرتِ الإجابة، فانزعجتِ النَّفس، وقلقت.

فصحْتُ بها: ويلك! تأمَّلي أمرك؛ أمملوكة أنت أم حرة مالكة؟ أمدبَّرة أنـت أم مدبِّرة؟ أما علـمت أنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ، واختبار، فإذا طلبتِ أغراضَك، ولم تصبري على ما يُنافي مرادَك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراضُ، وعكسُ المقاصد.

فافهمي معنى التكليف وقد هان عليك ما عزَّ، وسهُل ما استصعب.

فلما تَدَبَّرتْ ما قُلْتُهُ سكنت بعضَ السكون.

فقلت لها: وعندي جوابٌ ثانٍ، وهو: أنك تقتضين الحقَّ بأغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له؛ وهذا عينُ الجهل.

وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس، لأنَّك مملوكةٌ، والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حقِّ المالك، ويعلم أنَّه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى. فسكنت أكثرَ من ذلك السُّكون.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (١٨٧٢).
جاء هذا في الفصل (٢١).

فقلت لها: وعندي جوابٌ ثالث: وهو أنَّك قد استبطأت الإجابة وأنت سدَدْتِ طُرُقَها بالمعاصي، فلو قد فتحت الطريق أسرعت، كأنَّك ما علمت أنَّ سبب الراحة التَّقوى. أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطلاق: ٢]، و ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، أو ما فهمت أنَّ العكس بالعكس؟.

آهِ مِنْ سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى مَنْ زرع الأماني.

فعرفتِ النَّفس أنَّ هذا حقٌّ، فاطمأنت. فقلت: وعندي جوابٌ رابع؛ وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته، وربما كان فيه ضَرَرُك؛ فمَثَلُكِ كمَثَلِ طفلٍ محموم يطلب الحلوى؛ والمدبِّر لكِ أعلمُ بالمصالح. كيف وقد قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلما بانَ الصَّواب للنفس في هذه الأجوبة، زادت طمأنينتها.

فقلت لها: وعندي جوابٌ خامس؛ وهو أنَّ هذا المطلوب ينقُصُ من أجرك، ويحط من مرتبتك في الآخرة، فمنعُ الحق لك ما هذا سبيلُه عطاءٌ منه لك، ولو أنَّك طلبت ما يصلح آخرتك؛ كان أولى لك؛ فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحتُ! فقالت: لقد سرحتُ في رياض ما شرحت، فهِمْتُ(١) إذ فهِمْتُ(٢).



- ١٦ -
المقصود من العلم العمل

لما رأيت رأي نفسي في العلم حسناً، فهي تقدِّمه على كلِّ شيء، وتعتقد الدليل، وتفضِّل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول:

---

(١) «همت»: من هام، إذا خرج لا يدري أين يتوجه.
(٢) جاء هذا في الفصل (١٤٨).

أقوى دليل لي على فضله في النوافل أنّي رأيت كثيراً ممن شغَلهم نوافلُ الصَّلاة والصوم عن نوافل العلم؛ عاد ذلك عليهم بالقَدْح في الأصول، فرأيتها في هذا على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحتُ بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟ أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟.

أما كان الرَّسول ﷺ سيِّد الكلِّ، ثم إنَّه قام حتى ورِمتْ قدماه(1)؟.

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجيَّ النشيج، كثير البكاء؟.

أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطَّان من آثار الدموع؟.

أما كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلَّ لحيتُه بالدموع، ويقول: يا دنيا غرِّي غيري؟.

أما كان سعيدُ بنُ المسيب(2) ملازماً للمسجد، فلم تفته صلاةٌ في جماعة أربعين سنة.

أما كان أبو مسلم الخولاني(3) يعلق سوطاً في المسجد يؤدِّب نفسه إذا فتَر؟.

أما صام يزيد الرقاشي(4) أربعين سنة، وكان يقول: وا لهفاه سبقني العابدون، وقطع بي!.

---

(1) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة.

(2) هو: سعيد بن المسيّب بن حزن، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. توفي سنة (٩٤هـ). سير أعلام النبلاء (٢١٧/٤).

(3) هو: عبدالله بن ثوب: تابعي، فقيه، عابد، زاهد. أصله من اليمن، أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره. كان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة. توفي سنة (٦٢هـ). سير أعلام النبلاء (٧/٤).

(4) هو: يزيد بن أبان، أبو عمر: الزاهد، روى عن أبيه وعن أنس بن مالك والحسن البصري، وغيرهم. توفي ما بين سنة (١١٠ ـ ١٢٠هـ). حلية الأولياء (٥٠/٣).

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟.

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟.

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبُّدهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

فاحذري من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكُسالى الزَّمنى(١).



- ١٧ -
محاسبة النفس

تفكَّرت في نفسي يوماً تفكُّر محقِّق، فحاسبتها قبل أن تُحاسب، وزنتها قبل أن تُوزن.

فرأيت اللطفَ الرَّباني قد ربَّاني، فمِنْ بدء الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب عقوبةً، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

ولقد تفكَّرت في خطايا لو عوقبت ببعضها؛ لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضُها؛ لاستحييت.

ولا يعتقد معتقدٌ عند سماع هذا أنَّها من كبائر الذنوب، حتى يظنَّ فيَّ ما يظنُّ في الفسَّاق، بل هي ذنوبٌ قبيحةٌ في حقِّ مثلي، ووقعت بتأويلاتٍ فاسدة.

فصرت إذا دعوت، أقول: اللَّهم بحمدك، وسترك عليَّ اغفر لي!.

ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك، فما وجدته كما ينبغي. ثم أنا

---

(١) جاء هذا في الفصل (٤٠).

أتقاضى منه مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروهٍ، ولا بشكر على نعمة.

فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذَّذ بإيراد العلم من غير تحقيق عملٍ به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العُمرُ، وما حصل المقصود.

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نُحْتُ، فأعجبتني نياحتُه، فكتبتها ها هنا.

قال لنفسه: يا رَعْناء! تقوِّمين الألفاظ ليقال: مُناظر، وثمرةُ هذا يا مناظر! كما يقال للمصارع: الفاره[1].

ضيعتِ أعزَّ الأشياء، وأنفسَها عند العقلاء، وهي أيام العُمْرِ حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر، ثم يُنسى الذاكر والمذكور إذا درسَتِ القبور.

هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شابٌّ أفرَهَ منك فموّهوا له، وصار الاسم له.

والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نَشَرهم، وهو العمل بالعلم، والنَّظر الخالص لنفوسهم.

أفٍّ لنفسي وقد سطَّرت عدَّة مجلدات في فنون العلوم، وما عبِق[2] بها فضيلة! إنْ نوظرتْ؛ شمختْ، وإنْ نوصحتْ؛ تعجرفتْ، وإنْ لاحت الدنيا؛ طارت إليها طيرانَ الرَّخَم[3]، وسقوطَ الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة!.

توفر في المخالطة عيوباً تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها.

---

(١) «الفاره»: الحاذق بالشيء.

(٢) «عبق»: لزق.

(٣) «الرخم»: جمع رَخَمة، طائر يشبه النسر، يُوصف بالغدر والحمق.

وإن انكسر لها غرضٌ تضجَّرت، فإن امتدَّت بالنِّعم، اشتغلت عن المُنْعِم. أفٍّ والله منّي! اليوم على وجه الأرض، وغداً تحتها.

والله إنَّ نَتْنَ جَسَدي بعد ثلاث تحت التراب أقلُّ من نَتْنِ خلائقي وأنا بين الأصحاب!.

والله إنني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني كيف سترني وأنا أنتهك[1]! ويجمعني وأنا أشتِّت، وغداً يقال: مات الحَبْرُ، العالمُ، الصَّالح، ولو عرفوني حقَّ معرفتي بنفسي؛ ما دفنوني.

والله لأنادينَّ على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء! ولأنوحنَّ نُواح الثاكلين؛ إذ لا نائح لي ينوح عليَّ لهذه المصائب المكتومة، والخِلال المغطاة التي قد سترها مَنْ خبرها، وغطَّاها مَنْ علمها!.

والله ما أجد لنفسي خَلَّة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللَّهمَّ اغفر لي كذا بكذا!.

والله ما التفتُّ قطُّ إلا وجدت منه سبحانه بِرّاً يكفيني، ووقاية تحميني، مع تسلُّط الأعداء، ولا عرَضتْ حاجةٌ، فمددتُ يدي إلا قضاها.

هذا فعله معي، وهو ربٌّ غنيٌّ عنِّي، وهذا فعلي، وأنا عبدٌ فقيرٌ إليه، ولا عذر لي فأقول: ما دريت، أو سهوت.

والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً! ونوّر قلبي بالفطنة، حتى أنَّ الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي، فواحسرتاه على عمرٍ انقضى فيما لا يطابق الرضا! واحرماني لمقامات الرجال القطناء! يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي.

واخيبةَ مَنْ أحسن الظنَّ بي إذا شهدت الجوارحُ عليَّ! واخذلاني عند إقامة الحجَّة! سخر والله مني الشيطانُ وأنا الفطن!.

اللَّهم توبةً خالصة من هذه الأقدارِ! ونهضةً صادقةً لتصفية ما بقي من

---

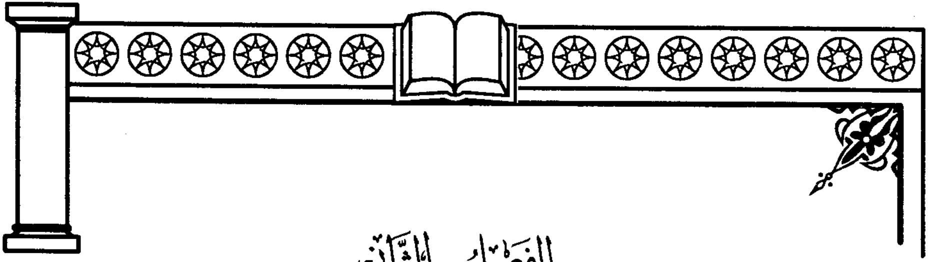
(١) «انتهك»: الهتك: خرق الستر حتى يظهر ما وراءه.

الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خَلَقِ المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلةٌ إلا التأسُّف والنَّدم.

فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك! ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي[1]!.

* * *

(١) جاء هذا في الفصل (٣٥٥).



الفصل الثاني

في الحديث عن النفس

تمهيد:

[وفي هذا الفصل نستعرض خواطر الإمام التي تحدثت عن «النفس» من حيث ميولها ورغباتها، وطبيعتها، وتأثرها، وسياستها..

والإمام هنا يسجِّل ملاحظاته، وتجاربه، ويتبعها بما يراه في سبيل تعديل تلك الميول والرغبات أو توجيهها.. ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

● من ملاحظاته: ما دوَّنه حول ظاهرة تأثُّر النفس بالمواعظ في حلقات الوعظ والدرس، فإذا خرجت من ذلك المجلس نسيت ذلك وعادت إلى ما كانت عليه.

ويعلِّل ذلك بأن المواعظ كالسياط لا تؤلم بعد انقضائها، وأن الإنسان أثناء الموعظة يكون مجتمع الفكر والقلب فإذا خرج تشتَّت الفكر والقلب.

يضاف إلى ذلك أن جواذب الطبع إلى الدنيا من داخل النفس، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع وهو من خارج، وما كان في الداخل أقوى.

ومن صوارف النفس عن الاحتفاظ بالتأثُّر: رؤية الهوى العاجل، ورجاء الرحمة..

● ومما رآه: أن اليقظة لا تدوم، ولما فكر في ذلك: وجد أن القواطع كثيرة.. وأن بعضها يستدعي البعض الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى كلل الفكر.

● والعلم يمدُّ القلب بالقوة حتى تتحول هذه القوة إلى نوع من قساوة، فيحتاج إلى ترقيق.. ثم يصف العلاج الذي يؤدي إلى الاعتدال.

● وسياسة النفس تحتاج إلى صناعة عجيبة، ويضرب أمثلة من أخطاء الناس في هذا الموضوع، والحازم من ضبطها في الأصول وفسح لها في المباح..

والنفس راغبة في الحرية، حريصة على ما منعت منه، وسبب هذه النزعة أنه يشق عليها الدخول تحت الحكم. وهذا ما يفسر لنا سهولة التعبُّد عليها بما ترى، لا بما يؤثُر.

أما ميل النفس إلى الشهوات فهو من القوة بحيث تميل بالقلب والعقل إلى ما تريد، وعندها لا يكاد النصح ينفع. والسبب في ذلك هو رؤية المشتهىٰ بعين الحسن، ولهذا فهو يحذِّر من ذلك.

● ويرى أن الإنسان في حال الغضب يصبح كالسكران الذي غاب وعيه، ولذا فهو ينصح من حوله بالصبر على فورة غضبه حتى تسكن.

وهذه النصيحة يمكن أن تستفيد منها الزوجة عند غضب زوجها، والولد عند غضب أبيه..

● والرضا عن النفس مصيبة عظمى، حيث يقتنع الإنسان بعلمه ورأيه، ولا يلتفت إلى غيره، وهذا ما دفع ابن ملجم إلى قتل علي رضي الله عنه، ودفع الحجاج إلى قتل مَن قتل.. فالواجب على الإنسان أن يضع نفسه جانباً، ويبحث عن الدليل، ولا يثق بعلم نفسه.

● ومن عجيب أمر النفس، أنها عندما تكون أمام عمل شاق، تخترع ما يساعدها على تحمُّل تلك المشقة.. ومن ذلك الغناء أو الإنشاد أثناء ذلك.

● والإشارات التي يستفيدها المتيقظون من مشاهداتهم، لا يمكن

فهمها من قِبل ذوي الطبع الكثيف، وإنما يستفيد منها ذوو العقل الواعي، والفهم السامي، والفقه الدقيق الذي ينفذ إلى ما وراء الألفاظ.

● ولا بد من التعرف على طاقة النفس وقدرة تحمُّلها عند الإقدام على الأمور الكبيرة، وهذه قضية تضمن له كرامته، وتجعله بعيداً عن الافتضاح بين الناس.

● وينبغي أن يعلم أن لذات النفس مشوبة بالمنغصات، وربما كانت المنغصات هي السابقة، فجاءت هذه اللذات وقد ذهب زمانها.

● وإذا كانت المصائب لا بد أن تُصيب النفس، فقد وضع الإمام بين الأيدي الأمور التي تساعد على تهوينها تخفيفها.

● والنفس بحاجة إلى مراقبة دائمة، كي تسدِّد خطواتها، وتبقى على الجادة، وهذا ما أرشد إليه الإمام..

وهكذا ألقى الضوء على جوانب متعددة من النفس.. مما يسهِّل التعامل معها، وإقامتها على الصراط السويِّ].



- ١ -
أثر الموعظة في النفس

قد يعرِض عند سماع المواعظ للسَّامع يقظةٌ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر؛ عادت القسوة، والغفلة.

فتدبَّرتُ السَّبب في ذلك، فعرفته، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك.

فالحالة العامَّة: أن القلب لا يكون على صفة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها لسببين:

أحدُهما: أنَّ المواعظ كالسِّياط، والسِّياط لا تؤلِمُ بعد انقضائها، وإيلامُها وقت وقوعها.

والثاني: أنَّ حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزاحَ العلَّة[1]، قد تخلَّى بجسمه وفكره عن أسباب الدُّنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشَّواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصحُّ أن يكون كما كان؟!.

وهذه حالة تعمُّ الخلق، إلا أنَّ أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر:

فمنهم: من يَعْزِم بلا تردُّدٍ، ويمضي من غير التفات، فلو توقَّف بهم ركب الطَّبع لضجُّوا، كما قال حنظلةُ عن نفسه: نافق حنظلة[2].

ومنهم: أقوامٌ يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظ إلى العمل أحياناً، فهم كالسنبلة تُميلُها الرِّياح.

وأقوامٌ لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه، كماءٍ دحرجته على صَفْوان[3][4].



وجواذب الطَّبع إلى الدُّنيا كثيرة، ثم هي مِنْ داخل.

وذكر الآخرة أمرٌ خارج عن الطبع، ثم هي مِنْ خارج.

وربما ظنَّ مَنْ لا عِلم له أنَّ جواذب الآخرة أقوى؛ لما يسمع من الوعيد في القرآن، وليس كذلك؛ لأنَّ مَثَل الطَّبع في ميله إلى الدُّنيا، كالماء الجاري؛ فإنَّه يطلب الهبوط، وإنَّما رفْعُه إلى فوق يحتاج إلى التكلُّف، ولهذا أجاب معاون الشرع: بالترغيب والترهيب يقوىٰ جند العقل.

فأما الطبع فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يَغْلِب، إنما العجب أن يُغْلَب[5].



(١) «مزاح العلة»: أي: خال من الشواغل.
(٢) روى مسلم حديث حنظلة برقم (٢٧٥٠).
(٣) «صفوان»: صخر أملس.
(٤) جاء هذا في الفصل (١).
(٥) جاء هذا في الفصل (٢).

- ٢ -
أسباب عدم الاستجابة للموعظة

تأمَّلت على الخلق، وإذا هم في حالةٍ عجيبةٍ يكاد يُقْطَعُ معها بفساد العقل، وذلك أنَّ الإنسان يسمعُ المواعظ، وتذكرُ له الآخرة، فيعلمُ صدق القائل، فيبكي، وينزعج على تفريطه، ويعزُم على الاستدراك، ثم يتراخى عملُه بمقتضى ما عزم عليه، فإذا قيل له: أتشك فيما وُعِدت به؟ قال: لا والله! فيقال له: فاعمل، فينوي ذلك، ثم يتوقَّف عن العمل، وربَّما مال إلى لذَّةٍ محرَّمة، وهو يعلم النَّهي عنها.

ومن هذا الجنس تأخُرُ الثلاثة الذين خُلِّفوا[١]، ولم يكن لهم عذر، وهم يعلمون قبح التأخر، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرط.

فتأمَّلت السبب مع أنَّ الاعتقاد صحيح، والفعل بطيء، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل، فإنَّ رؤيته تشغَل عن الفكر فيما يجنيه..

والثاني: التسويف بالتوبة؛ فلو حضر العاقل لحذَّر من آفات التأخير، فربَّما هجم الموت، ولم تحصل التوبة. والعجب ممن يُجَوِّز سلب روحه قبل مضي ساعة ولا يعمل على الحزم! غير أنَّ الهوى يطيل الأمد، وقد قال صاحب الشرع ﷺ: **«صلاة مودع»**[٢]. وهذا نهاية الدواء لهذا الداء، فإنَّه مَنْ ظَنَّ أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى جدَّ، واجتهد.

والثالث: رجاءَ الرَّحمة، فيُرىٰ العاصي يقول: ربي رحيم، وينسى: أنه شديدُ العقاب. ولو علِمَ أنَّ رحمته ليست رِقَّة؛ إذ لو كانت كذلك؛ لما ذبح عصفوراً، ولا آلم طفلاً، وعقابُه غير مأمون، فإنَّه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط، فنسأل الله عزَّ وجلَّ أن يهب لنا حزماً يبت المصالح جزماً[٣]!.



(١) وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١).
(٣) جاء هذا في الفصل (٢٥٩).

- ٣ -
لماذا لا تدوم اليقظة؟

خطر لي خاطر والمجلس[١] قد طاب، والقلوب قد حضَرتْ، والعيونُ جارية، والرؤوسُ مطرقة، والنفوس قد ندمتْ على تفريطها، والعزائمُ قد نهضت لإصلاح شؤونها، وألسنة اللوم تعمل في الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر.

فقلت لنفسي: ما بالُ هذه اليقظةِ لا تدوم، فإني أرى أنَّ النفس واليقظة في المجلس متصافيان متصادقان، فإذا قمنا عن هذه التربة، وقعت الغربة.

فتأملت ذلك، فرأيت أنَّ النفسَ ما تزال متيقظةً، والقلبَ ما يزال عارفاً، غير أن القواطع كثيرةٌ، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه وتعالى قد كلَّ، مما يستعمل في اجتلاب الدنيا، وتحصيل حوائج النفوس، والقلب منغمسٌ في ذلك، والبدن أسيرٌ مستخدم.

وبينما الفكر يجول في اجتلاب الطعام والشراب والكُسْوة، وينظر في صدد ذلك، وما يدّخره لغده وسنته، إذا هو مهتم بخروج الحدث، وتشاغل بالطهارة، ثم اهتمَّ بخروج الفضلات المؤذيةِ ـ ومنها المَنِيُّ ـ فاحتاج إلى النكاح، فعلم أنه لا يصحُّ إلا باكتساب كَسْبِ الدُّنيا. فتفكر في ذلك، وعمل بمقتضاه.

ثم جاء الولد فاهتمَّ به، وله، وإذا الفكر عامل في أصول الدنيا وفروعها.

فإذا حضر الإنسان المجلس، فإنَّه لا يحضر جائعاً، ولا حاقناً، بل يحضر جامعاً لهمته، ناسياً ما كان من الدُّنيا على ذكره. فيخلو الوعظُ بالقلب، فيُذَكره بما ألف، ويجذِبه بما عرَف، فينهض عمَّال القلب في زوارق عِرْفانه؛ فيُحْضِرون النفس إلى باب المطالبة بالتفريط، ويؤاخذون الحسَّ بما

---

(١) «المجلس»: أي مجلس الوعظ.

مضى من العيوب، فتجري عيونُ الندم، وتنعقدُ عزائم الاستدراك.

ولو أنَّ هذه النفس خلت عن المعهودات التي وصفتها، لتشاغلت بخدمة باريها.

ولو وقعت في سَوْرة[1] حبه؛ لاستوحشت عن الكلِّ شغلاً بقربه؛ ولهذا اعتمد الزُّهاد الخلوات، وتشاغلوا بقطع المُعَوِّقات، وعلى قدر مجاهدتهم في ذلك نالوا من الخدمة مرادَهم، كما أنَّ الحصادَ على مقدار البَذْرِ.

غير أني تلمحت في هذه الحالة دقيقةً، وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة؛ لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها؛ وهو العُجْبُ بحالها، والاحتقارُ بجنسها، وربما ترقت بقوة علمها وعِرفانها، إلى دعوى: لي، وعندي، وأستحقُّ، فتركها في حومة ذنوبها تتخبط؛ فإذا وقفت على الشاطىء، وقامت بحق ذلة العبودية، فذلك أولى لها.

هذا حكمُ الغالب من الخلق، ولذلك شُغِلوا عن هذا المقام؛ فمَنْ بَذَر صلح له، فلا بدَّ له من هفوة تراقبها عين الخوف بها تصحُّ له عبوديته، وتسلم له عباداته.

وإلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح: «**لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون، فيُغفَر لهم**»[2].[3]

❋ ❋ ❋

ـ ٤ ـ
العلم يقوى القلب

تأمَّلت العلم والميل إليه والتشاغل به، فإذا هو يُقوِّي القلب قوةً يميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوةُ القلب وطولُ الأمل، لم يقع التشاغل به.

---

(١) «سَوْرة»: حِدَّة، وأثر، وسطوة.

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٨ و ٢٧٤٩).

(٣) جاء هذا في الفصل (٣٣).

فإنّي أكتبُ الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدىء بالتصنيف أرجو أنْ أتمَّه، فإذا تأمّلت باب المعاملات قلَّ الأمل، ورقَّ القلب، وجاءتِ الدُّموع، وطابَت المناجاة، وغشيتِ السكينة، وصِرْتُ كأني في مقام المراقبة.

إلا أنَّ العلم أفضلُ، وأقوى حجة، وأعلى رتبة، وإنْ حدث منه ما شكوت منه.

والمعاملة ـ وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها ـ فإنَّها قريبةٌ إلى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاح نفسِه عن هداية غيره، وانفرد بعُزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربِّهم.

فالصوابُ العكوفُ على العلم مع تلذيع النَّفس بأسباب المُرفقات تلذيعاً لا يَقْدَحُ في كمال التشاغل بالعلم؛ فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور، وأن أحضر المُحْتَضرين؛ لأنَّ ذلك يؤثر في فكري، ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر في الموت، ولا أنتفع بنفسي مدَّة.

وفصل الخطاب في هذا: أنه ينبغي أن يُقاوَم المرضُ بضده، فمن كان قلبه قاسياً شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفُّه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المُحْتضرين.

فأمَّا مَنْ قلبه شديد الرِّقة فيكفيه ما به؛ بل ينبغي له أن يتشاغل بما يُنسبه ذلك لينتفعَ بعيشه، وليفهَم ما يُفتي به.

وقد كان الرسول ﷺ يمزح[1]، ويسابق عائشة[2]، ويتلطَّف بنفسه؛ فمن سارَ سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قُلْتُهُ من التلطُّف بالنفس[3].



(١) رواه الترمذي (١٩٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٧٨).

(٣) جاء هذا في الفصل (٩٦).

- ٥ -
طريقة سياسة النفس

أعجبُ الأشياء مجاهدةُ النفس، لأنَّها تحتاج إلى صناعةٍ عجيبة.

فإنَّ أقواماً أطلقوها فيما تحبُّ، فأوقعتْهُم فيما كرِهوا.

وإنَّ أقواماً بالغوا في خلافها حتى منعوها حقَّها، وظلموها. وأثَّرَ ظلمُهم لها في تعبداتهم.

فمنهم: من أساء غذاءها؛ فأثَّر ذلك ضعفَ بدنها عن إقامة واجبها.

ومنهم: من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض، أو فضل من عيادة مريض، أو برِّ والدة.

وإنما الحازم مَنْ تعلمُ منه نفسه الجِدَّ وحفظ الأصول.

فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعدَّاه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعضَ جنده، فإنه لا ينبسط إليه الغلام؛ فإنِ انبسط ذكر هيبة المملكة.

فكذلك المحقق يعطيها حظَّها، ويستوفي منها ما عليها[١].

***

- ٦ -
رغبة النفس في الحرية

تأمَّلت حرص النفس على ما مُنِعت منه، فرأيتُ حرصها يزيد على قَدْرِ قوة المنع.

ورأيت في الشِّرْب[٢] الأول أنَّ آدم عليه السلام لما نهي عن الشجرة

---

(١) جاء هذا في الفصل (٩١).

(٢) «الشِّرب»: معناه المنهج أو الحال. والمراد به: الصدر أو السلف.

حرَص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها، وفي الأمثال: المرء حريصٌ على ما منع، وتوّاقٌ إلى ما لم ينل.

ويُقال: لو أُمِر الناس بالجوع لصبروا، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشيء. وقد قيل:

أحـــبُّ شـــيءٍ إلـــى الإنـــســـان مـــا مُـــنِـــعـــا

فلما بحثت عن سبب ذلك؛ وجدت سببين:

أحدُهما: أنَّ النفس لا تصبر على الحصر، فإنَّه يكفي حصرُها في البدن صورة، فإذا حصرت في المعنى بمنع؛ زاد طيشها؛ ولهذا لو قعد الإنسان في بيته شهراً لم يصعب عليه، ولو قيل له: لا تخرج من بيتك يوماً طال عليه.

والثاني: أنها يشُقُّ عليها الدخول تحت حكم، ولهذا تستلذُّ الحرام، ولا تكاد تستطيب المباح؛ ولذلك يسهل عليها التعبُّد على ما ترى وتؤثر، لا على ما يؤثر(١).



- ٧ -
آثار ميل النفس إلى الشهوات

رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائداً في المقدار حتى إنَّها إذا مالَتْ مالتْ بالقلب، والعقل، والذهن، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من النصح، فصِحْتُ بها يوماً وقد مالت بكليتها إلى شهوة: ويحك! قفي لحظةً أكلمْكِ كلماتٍ، ثم افعلي ما بدا لك!.

قالت: قلْ، أسمعْ.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٣).

قلت: قد تقرَّر قلة ميلك إلى المباحات من الشهوات، وأما جُلُّ ميلك إلى المحرمات، فأنا أكشف لك عن الأمرين، فربما رأيت الحُلوين مُرَّيْن.

أما المباحاتُ من الشَّهوات: فمطلقة لك، ولكن طريقها صعب؛ لأنَّ المال قد يعجز عنها، والكسب قد لا يحصِّل معظمها، والوقت الشريف يذهب بذلك. ثم شغل القلب بها وقت التحصيل، وفي حالة الحصول يحذَر الفوات. ثم ينغِّصها من النقص ما لا يخفى على مميز؛ إن كان مطعماً فالشِّبَع يُحدِث آفات، وإن كان شخصاً فللملل أو الفراق، أو سوءِ الخلق.. إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

وأما المحرمات: فتشتمل على ما أشرنا إليه من المباحات، وتزيد عليه أنها آفةُ العرض، وخوفُ عقاب الدنيا وفضيحتها، ووعيدُ الآخرة، ثم الجزع كلما ذكرها التائب.

وفي قوَّة قهر الهوى لذةٌ تزيد على كلِّ لذة، ألا ترى إلى كلِّ مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً، لأنه قُهر؛ بخلاف غالب الهوى، فإنه يكون قويَّ القلب، عزيزاً لأنه قَهَر.

فالحذرَ الحذرَ من رؤية المشتهى بعين الحُسْن، كما يرى اللصُّ لذة أخذ المال من الحِرْز[1]، ولا يرى بعين فكره القطع.

وليفتح عين البصيرة لتأمل العواقب واستحالةِ اللذة نغصةً، وانقلابِها عن كونها لذةً إما لملل، أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب؛ فتكون المعصية الأولى كلُقْمةٍ تناولها جائع، فما ردَّت كَلَبَ الجوع، بل شَهَّت الطعام.

وليتذكَّر الإنسان لذة قهر الهوى مع تأمُّل فوائد الصبر عنه، فمن وُفِّق لذلك كانت سلامته قريبةً منه[2].



(١) الموضع الحصين.
(٢) جاء هذا في الفصل (٣٢).

- ٨ -
حقيقة الغضب وعلاجه

متى رأيت صاحبك قد غضب، وأخذ يتكلَّم بما لا يصلُح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصراً[١]، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حالُ السَّكران، لا يدري ما يجري.

بل اصبر لفورته، ولا تعوّلْ عليها، فإنَّ الشيطان قد غَلَبه، والطبعَ قد هاج، والعقلَ قد استتر.

ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله؛ كنت كعاقل واجَه مجنوناً، أو كمفيق عاتَب مغمى عليه، فالذنب لك.

بل انظر بعين الرحمة، وتلمَّح تصريف القَدَر له، وتفرَّج في لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى، وعرَف لك فضلَ الصَّبر.

وأقلُّ الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به.

وهذه الحالة ينبغي أن يتلمَّحها الولدُ عند غضب الوالد، والزوجةُ عند غضب الزَّوج، فتتركه يشتفي بما يقول، ولا تعوِّل على ذلك، فسيعود نادماً معتذراً.

ومتى قوبل على حالته ومقالته؛ صارت العداوة متمكِّنة، وجازى في الإفاقة على ما فُعل في حقِّه وقت السكر.

وأكثرُ النَّاس على غير هذه الطريق.

متى رأوا غضبان؛ قابلوه بما يقول ويعمل، وهذا على غير مقتضى الحكمة، بل الحكمة ما ذكرتُه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣][٢].



---

(١) المعنى: لا تأخذ ما يقول بعين الاعتبار والمؤاخذة.

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٠٤).

- ٩ -

الرضا عن النفس مصيبة

المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه، واقتناعه بعلمه.

وهذه محنةٌ قد عمَّت أكثر الخلق.

فترى اليهوديَّ والنَّصرانيَّ يرى أنَّه على الصَّواب، ولا يبحث، ولا ينظر في دليل نبوة نبينا ﷺ، وإذا سمع ما يُلِين قلبَه مثل القرآن المعجز؛ هرب لئلا يسمع، وكذلك كلُّ ذي هوىً يثبت عليه، إمَّا لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظراً أولاً فرآه صواباً، ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه.

ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله تعالى عنه؛ فإنَّهم استحسنوا ما وقع لهم، ولم يرجعوا إلى مَنْ يعلم، ولما لقيهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فبيَّن لهم خطأهم؛ رجع عن مذهبه منهم ألفان.

وممَّن لم يرجع عن هواه ابنُ ملجم، فرأى مذهبه هو الحقّ، فاستحلَّ قتل أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه، ورآه ديناً، حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع، فلما طُلب لسانه ليُقطع؛ انزعج، وقال: كيف أبقى ساعة في الدُّنيا لا أذكر الله؟!.

ومثل هذا ما له دواء.

وكذلك كان الحجَّاج يقول: والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت، هذا قوله وكم قد قتل من لا يحلُّ قتلُه، منهم سعيد بن جبير.

وقد وُجِد في سجن الحجَّاج ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً، ما يجب على واحد منهم قطع، ولا قتل، ولا صلب!.

وعموم السلاطين يقتلون، ويقطعون ظناً منهم جوازَ ذلك، ولو سألوا العلماء بيَّنوا لهم.

وعموم العوامِّ يبارزون بالذنوب اعتماداً على العفو، وينسون العقاب.

ومنهم من يعتمد: أنِّي من أهل السنة، أو أنَّ لي حسنات قد تنفع، وكلٌّ هذا لقوة الجهل.

فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفةِ الدليل، ولا يساكنَ شبهته، ولا يثقَ بعلم نفسه. نسأل الله السلامة من جميع الآفات[1]!.



- ١٠ -
طريقة تهوين العمل الشاق على النفس

مرَّ بي حمّالان تحت جذعٍ ثقيل، وهما يتجاوبان بإنشاد التنغم، وكلمات الاستراحة.

فأحدُهما يُصغِي إلى ما يقوله الآخر، ثم يعيدُه، أو يجيبُه بمثله، والآخر همَّته مثل ذلك.

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما، وثقُل الأمر، كلما فعلا هذا هانَ الأمر.

فتأمَّلت السبب في ذلك؛ فإذا به تعليق فكرِ كلِّ واحدٍ منهما بما يقوله الآخر، وطربُه به، وإجالةُ فكره في الجواب بمثل ذلك؛ فينقطعُ الطريق، وينسى ثِقَل المحمول[2].

---

(١) جاء هذا في الفصل (٣٥٣).

(٢) وهذا ما أرشد إليه ﷺ في مثل هذه الحال، ففي البخاري: (خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: **«اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»**، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا)

وهكذا قطع الرسول ﷺ صمتهم الذي يشعرهم بالتعب بهذا الهتاف.

فأخذت من هذا إشارةً عجيبة، ورأيت الإنسان قد حملَ من التكليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حملَ مداراةُ نفسه، وتكليفها الصَّبر عما تُحِبّ، وعلى ما تكره.

فرأيت الصواب: قطْعَ طريق الصبر بالتسلية والتلطُّف للنفس، كما قال الشاعر:

فإن تشكَّت فعلّلْها المجرةَ من ... ضوءِ الصَّباح وعِدْها بالرواح ضُحى

ومن هذا ما يُحكى عن بِشْر الحافي رحمة الله عليه: سار ومعه رجلٌ في طريق؛ فعطِش صاحبه. فقال له: أنشرب من هذا البئر؟ فقال بِشْر: اصبر إلى البئر الآخر، فلما وصلا إليها قال له: البئر الأخرى؛ فما زال يُعلِّله. ثم التفت إليه فقال له: هكذا تنقطِع الدنيا.

ومن فهم هذا الأصل علَّل النفس، وتلطَّف بها، ووعدها الجميل؛ لتصبر على ما قد حمَلَتْ.

كما كان بعض السَّلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاقَ عليك.

وقال أبو يزيد رحمة الله عليه: ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي؛ حتى سُقتها وهي تضحك.

واعلم أنَّ مداراة النفس والتلطُّف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق فهذا رمزٌ إلى الإشارة، وشرحه يطول[1].

❋ ❋ ❋

- ١١ -
قياس طاقة النفس قبل العمل

ينبغي للعاقل ألاَّ يقدَمَ على العزائم حتى يَزِنَ نفسه، هل يطيقها،

---

(١) جاء هذا في الفصل (٥٩).

ويجرب نفسه في ركوب بعضها سراً من الخلق، فإنه لا يأمن أن يُرى في حالة لا يصبر عليها، ثم يعود فيُفتَضح.

مثاله: رجل سمع بذكر الزُّهاد، فرمى ثيابه الجميلة، ولبس الدون، وانفرد في زاوية، وغلَّب على قلبه ذكرَ الموت والآخرة، فلم يلبث متقاضي الطبع أن ألحَّ بما جرت به العادة.

فمِنَ القوم مَنْ عاد بمرَّةٍ إلى أكثر مما كان عليه، كأكل الناقه[1] مِنْ مرض.

ومنهم من توسط الحال، فبقي كالمذبذب.

وإنما العاقل هو الذي يستر نفسه بين الناس بثوبٍ وسط لا يخرِجُه من أهل الخير، ولا يدخِلُه في زِيِّ أهل الفاقة.

فإن قويت عزيمتُه عمل في بيته ما يطيق، وترك ثوب التجمُّل لستر الحال، ولم يظهِرْ شيئاً للخلق؛ فإنه أبعدُ من الرياء، وأسلمُ من الفضيحة.

وفي الناس مَنْ غلب عليه قِصَرُ الأمل، وذكرُ الآخرة حتى دفن كتب العلم؛ وهذا الفعل عندي من أعظم الخطأ وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار، ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا، فقال: أخطؤوا كلُّهم.

وقد تأوَّلت لبعضهم بأنّه كان فيها أحاديثُ عن قومٍ ضعفاء، ولم يميِّزوها؛ كما روي عن سفيان في دفن كتبه، أو كان فيها شَيءٌ من الرأي، فلم يحبُّوا أن يؤخذ عنهم، فكان من جنس تحريق عثمان رضي الله عنه للمصاحب لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المُجْمَع على غيره.

وهذا التأويل يصحُّ في حق علمائهم؛ فأما غسل أحمد بن أبي الحواري كُتُبَه وابن أسباط؛ فتفريطٌ محض.

فالحذرَ الحذرَ من فعلٍ يمنع منه الشَّرع! أو من ارتكاب ما يُظَنُّ عزيمةً

---

(١) «الناقه»: هو الذي صح جسمه بعد المرض، ولا تزال بعض آثار المرض.

وهو خطيئة، أو من إظهار ما لا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى، و «عليكم من العمل بما تُطِيقون»[(١)]، كما قال ﷺ[(٢)].



- ١٢ -
لذات النفس مشوبة بالمنغصات

رأيت النفس تنظر إلى لذَّات أرباب الدنيا العاجلة، وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات.

وبيان هذا: أنَّك إنْ رأيت صاحب سلطنة، فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بالظلم؛ فإن لم يقصد هو حصل من عمَّاله، ثم هو خائفٌ منزعجٌ في كلِّ أموره؛ حَذِرٌ من عدو أن يسمَّه؛ قلقٌ ممَّن هو فوقه أن يعزلَه، ومن نظيره أن يكيدَه، ثم أكثر زمانه يمضي في خدمة من يخافه من السَّلاطين، وفي حساب أموالهم، وتنفيذ أوامرهم التي لا تخلو من أشياء منكرة، وإن عزل أربى[(٣)] ذلك على جميع ما نال من لذة، ثم تلك اللذة تكون معمورةً بالحَذَر فيها، ومنها، وعليها.

وإن رأيت صاحبَ تجارةٍ رأيته قد تقطَّع في البلاد، فلم ينلْ ما نال إلا بعد علوِّ السن، وذهاب زمان اللذة.

ثم إنَّ صاحب المال هو خائفٌ على ماله، محاسبٌ لمعامليه، مذمومٌ إنْ أسرف وإنْ قتَّر، ولدُه يرصُد موته، وجاريته قد لا ترضى بشخصه، وهو مشغولٌ بحفظ حواشيه، فقد مضى زمانُه في مِحَن، واللذَّات فيها خلس[(٤)] معتادة، لا لذة فيها.

---

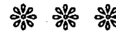
(١) رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).
(٢) جاء هذا في الفصل (١١٨).
(٣) «أربى»: زاد.
(٤) «خلس»: أي فرص.

ثم في القيامة يُحْشَرُ الأمير والتاجر خزايا إلا من عصم الله.

فإيَّاك إيَّاك أن تنظر إلى صورة نعيمهم! فإنك تستطيبه لبعده عنك، ولو قد نلته بَرَدَ عندك، ثم في ضمنه من مِحَنِ الدُّنيا والآخرة ما لا يوصف.

فعليك بالقناعة مهما أمكن، ففيها سلامةُ الدُّنيا والدِّين.

وقد قِيل لبعض الزهاد ـ وعنده خبزٌ يابس ـ: كيف تشتهي هذا؟ فقال: أتركه حتى أشتهيه[١].



ـ ١٣ ـ
طريقة تهوين المصائب

مَن نزلت به بليَّة، فأراد تمحيقها[٢]؛ فليتصورها أكثر مما هي تهُن، وليتخايل ثوابها، وليتوهم نزول أعظمَ منها؛ يرى الربح في الاقتصار عليها، وليتلمَّح سرعة زوالها، فإنه لولا كرب الشدة، ما رُجيت ساعات الراحة.

وليعلم أنَّ مدة مقامها عنده كمدَّة مقام الضيف، فليتفقَّد حوائجه في كلِّ لحظة، فيا سرعةَ انقضاء مقامه، ويا لذة مدائحه وبشره في المحافل، ووصف المضيف بالكرم.

فكذلك المؤمن في الشدَّة، ينبغي أن يُراعي الساعات، ويُتفقَّد فيها أحوال النفس، ويتلمَّح الجوارح مخافةَ أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخُّط.

فكأن قد لاح فجرُ الأجر، فانجاب[٣] ليلُ البلاء، ومدح الساري بقطْع الدُّجى، فما طلعت شمس الجزاء، إلا وقد وصل منزل السلامة[٤].



(١) جاء هذا في الفصل (١٥٨).

(٢) «تمحيقها»: محوها واستئصالها.

(٣) «انجاب»: انقشع وانكشف.

(٤) جاء هذا في الفصل (٣٩).

- ١٤ -
قوام الأنفس

للنفس ذخائرُ في البدن، منها: الدَّم، والمَنِيُّ، وأشياءُ تتقوَّى بها، فإذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شيء؛ ذهبت.

ومن ذخائرها التقوِّي بالمال، والجاه، وما يوجب الفرح؛ فإذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة؛ أحرجت.

وقد يهجُم عليها الخوف، فلا تجد ذخيرةً من الرَّجاء يقاومه فتذهب، ويغلب عليها الفرح، فلا تجد من الحزن ما يقاومه، فتذهب.

فاجتهد في حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ؛ فإنه ينبغي له ألاَّ يفرح بإخراج الدم، ولا بإخراج المنيّ وإن وجد شبقاً[١]، إلا أن يكون الشَّبق زائداً في الحدِّ، فيخرج المؤذي في كل حين، وعلامة أن يكون مؤذياً وجود الراحة عند خروجه؛ فمتى وجد ضعفاً؛ فقد آذى خروجه.

وليحفظ ذو الأنفة على نفسه حشمته، بألاَّ يقفَ في موقف يُعاب به، فإنَّه يتمتَّع بذخيرة العزِّ والأنفة، ويضادُّ النفس وجودُ ضدِّ ذلك، وكذلك ينبغي أن يستعدَّ لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج، فيذلَّ، أو يسعى، وقد كلَّت[٢] الآلة، ولأن يخلِّف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه.

ولا يلتفتْ إلى مَنْ يذمُّ المال، فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة، فاستطابوا الكسل والدعة، ولم يأنفوا من تناول الصَّدقة، ولا من التعرُّض للسؤال.

وقد كان لكلِّ نبيٍّ معاش، ولجميع الصحابة، وخلَّفوا أموالاً كثيرة، فافهم هذا الأصل، ولا تلتفت إلى كلام الجُهَّال[٣].



(١) «شبقاً»: شهوة شديدة.

(٢) «كلت»: تعبت.

(٣) جاء هذا في الفصل (٢٧٧).

- ١٥ -
إصلاح النفس

تأمَّلت أمر الدنيا والآخرة فوجدتُ حوادث الدنيا حسِّيَّة طبعية، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية.

والحسِّيَّات أقوى جذباً لمن لم يقوَ علمه ويقينه، والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها. فمخالطة الناس، ورؤية المستحسنات، والتعرض بالملذوذات يقوي حوادث الحسِّ.

والعزلة، والفكر، والنظر في العلم يقوي حوادث الآخرة، ويبين هذا بأن الإنسان إذا خرج يمشي في الأسواق ويبصر زينة الدنيا، ثم دخل إلى المقابر، فتفكَّر ورقَّ قلبه، فإنَّه يُحِسُّ بين الحالتين فرقاً بيِّناً، وسبب ذلك التعرُّض بأسباب الحوادث.

فعليك بالعزلة، والذكر، والنظر في العلم، فإنَّ العزلة حِمْيَةٌ، والفكرَ والعلمَ أدوية، والدواء مع التخليط لا ينفع.

وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخَلْق، والتخليط في الأفعال؛ فليس لك دواء إلا ما وصفتُ لك، فأما إذا خالطت الخَلْق وتعرضت للشهوات، ثم رُمْتَ صلاح القلب رُمْتَ الممتنع[1].



واعلم أنَّ أصلح الأمور الاعتدالُ في كلِّ شيء.

وإذا رأينا أرباب الدُّنيا قد غلبت آمالُهم، وفَسَدَتْ في الخير أعمالُهم؛ أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة.

فأمَّا إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموتُ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه، وتجري على لسانه، فتذكارُه الموتَ زيادةً على ذلك لا تفيد إلا

(١) جاء هذا في الفصل (٢٢).

انقطاعه بمرَّة. بل ينبغي لهذا العالم الشديدِ الخوف من الله تعالى الكثير الذِّكر للآخرة أن يُشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتدَّ نفس أمله قليلاً؛ فيصنِّف، ويعمل أعمال خير، ويقدِرُ على طلب ولد. فأمَّا إذا لهج بذكر الموت؛ كانت مفسدتُه عليه أكثرَ من مصلحته.

ألم تسمع أنَّ النبي ﷺ سابق عائشة رضي الله عنها فسبقته، وسابقها فسبقها، وكان يمزح، ويشاغل نفسه، فإنَّ مطالعة الحقائق على التحقيق تُفسِد البدن، وتُزْعِجُ النفس.

وقد روي عن أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: أنَّه سأل الله تعالى أن يفتح عليه باب الخوف، ففتح عليه، فخاف على عقله؛ فسأل الله أن يردَّ ذلك عنه.

فتأمَّلْ هذا الأصل فإنه لا بد من مغالطة النفس[1] وفي ذلك صلاحُها. والله الموفق والسَّلام[2].

* * *

(١) كما في قوله ﷺ لحنظلة رضي الله عنه: «ولكن ساعة وساعة».

(٢) جاء هذا في الفصل (١٠٧).



الفصل الثالث

في إصلاح الأسرة

تمهيد:

[تناول الإمام ابن الجوزي في خواطره أمر الأسرة في فصول كثيرة، غلب على معظمها التكرار من حيث الموضوعات والأفكار، كما هو شأنه في بقية الموضوعات التي تناولها.

وقد اخترت بعض هذه الفصول التي تجمع الأفكار التي وردت في الفصول التي تركتها.

والملفت للنظر في هذا الإطار كثرة الفصول التي خصَّصها للتحذير من الإسراف في الجنس، وبيان خطره، وبخاصة على الكبار في السن..

وأستطيع أن أشير إلى النقاط الرئيسة التي تناولها، بالآتي:

● في الشأن الاقتصادي للأسرة، ينبغي أن يكون الإنفاق أقلَّ من الكسب حتى يدَّخر الفائض لزمن العجز، والابتعاد عن السرف أمر ضروري، ومن المصائب أن يُبتلى الإنسان بزوجة مبذرة.

● وأما في شأن اختيار الزوجة، فيحسن بالرجل الفقير أن يختار امرأة فقيرة حتى لا يتغير عليها مستوى المعيشة الذي كانت فيه.

ويحسن أن تكون مقاربة له في السن، فإن وُجِدَ الفارقُ في السن،

فعلى الرجل أن يعوضها عن ذلك بحسن الخلق، وكثرة الإنفاق.

ويحسن أن ينظر إليها.. فإن وقعت في نفسه تزوجها، وإن أمكن مكالمتها فذلك أفضل.. فإن الحسن في الفم والعينين.

● وأما في إطار التعامل بين الزوجين، فينبغي على الزوج أن يحتفظ بهيبته، وأن يعتني كل منهما بلباسه وهندامه، فلا تكون الزوجة متبذلة بثياب المهنة عندما يأتي زوجها، وعليه أيضاً أن لا يتبذل، بحيث لا يرى كل واحد منهما من الآخر ما لا يشتهي.

ومن حيث المبيت يحسن أن يكون لكل واحد منهما فراش..

● ورعاية الأولاد مسؤولية مشتركة بين الزوجين، وعلى الأب حفظهم من مخالطة من فسدت أخلاقهم.. فإن الطبع لص.. وإذا بلغ الخامسة فليبدأ بتعليمه والتشاغل بالقرآن أولاً.. والسن المبكرة هي سن الحفظ.

● ومن قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى، فليغمض عن عيوبها، ولا يمدّن نظره إلى زوجة ثانية.

ويحلّل الإمام العوامل التي تدفع البعض إلى العقد على الزوجة الثانية.. ومنها أن بعضهم يرى المرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته.. فإطلاق البصر هو منشأ الخطر.

فعلى الإنسان أن يحفظ بصره، وأن يعالج مرض الطمع بالثانية بدواء يأس النفس من تحصيل ذلك.

تلك بعض الخطوط العريضة التي جاءت في خواطر الإمام بشأن الأسرة، وسيجد القارئ أموراً تفصيلية أخرى..].



- ١ -
درس في تدبير النفس والأسرة

قوام الآدمي بشيئين: الحرارة والرطوبة، ومن شأن الحرارة أن تحلّل الرطوبة وتفنيها.

فالآدمي محتاج إلى تحصيل خَلف المتحلل، فأبدان النشء تغتذي بأكثر مما يتحلَّل منها، والأبدان المتناهية تغتذي بمقدار ما يتحلَّل منها، والأبدان التي قد أخذت في الهرم يتحلَّل منها أكثر مما تغتذي به.

فينبغي للناشىء البالغ أن يتحفظ في النِّكاح، لأنه يربي قاعدة قوةٍ يجد أثرها في الكِبَر.

وأما المتوسط والواقف السنّ فينبغي أن يحذَر فضولَ الجماع، فإنْ حصل له مثل ما يخرج منه أسرف..

وأما الشيخ فترك النِّكاح كاللازم له، وخصوصاً إذا زاد علوُّ السنِّ؛ لأنه ينفق من الجوهر الذي لا يحصل مثله أبداً.

ثم ينبغي أن ينظر العاقل في ماله فيكتسب أكثر مما ينفق ليكون الفاضلُ مدَّخراً لوقت العجز، وليَحْذَرِ السَّرفَ، فإنَّ العدل هو الأصلح.

ثم ينظر في الزوجة، والمطلوب منها شيئان: وجودُ الولد، وتدبيرُ المنزل، فإذا كانت مبذِّرةً فعيب لا يحتمل، فإن انضمت صفة العُقْر فلا وجه للإمساك، إلا أن تكون مستحسنة الصورة، فإن ضُمَّ إليها عقلٌ وعفافٌ حَسُنَ الإمساك، وإن كانت مما يحتاج أن تُحْفَظ[1] فتركها لازم.

وليحفظ نفسه بالهيبة من الانحراف مع الزوجة، ولا يطلعها على ماله، فإنَّها سفيهةٌ تطلب كثرة الإنفاق.

---

(١) أي تراقب في سلوكها.

وأما **تدبير الأولاد** فحفظُهم من مخالطةِ تفسد، ومتى كان الصبيُّ ذا أنفة - حيياً - رُجِي خيرُه، وليحملْ على صحبة الأشراف والعلماء، وليحذرْ من مصاحبة الجهَّال والسُّفهاء، فإنَّ الطبع لِصٌّ، وليحذِّرْ الصبيّ من الكذب غاية التحذير، ومن المخالطة للصبيان.

وليوصى بزيادة البرِّ للوالدين، وليُحفظ من مخالطة النساء؛ فإذا بلغ فليُزَوَّجْ بصبية لم تعرفْ غيره، فينتفعان.

هذه الإشارة إلى تدبير أمور الدنيا.

وأما تدبير أمر العلم، فينبغي أن يُحْمَل الصبيُّ مِنْ حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن، والفقه، وسماع الحديث، وليُحَصل له المحفوظات أكثر من المسموعات، لأنَّ زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة، فإذا بلغ تشتت همَّته، فليضربْ تارة، ويرشى[1] أخرى، وليبلغ وقد حصّل محفوظاتٍ سنية.

وأول ما ينبغي أن يكلَّف حفظَ القرآن متقناً؛ فإنَّه يثبتُ، ويختلط باللَّحم والدم.

ثمَّ مقدمة من النَّحو يعرف بها اللحن، ثم الفقه مذهباً وخلافاً، وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظُه حسن.

وليحذر من عادات أصحاب الحديث، فإنهم يفنون الزمان في سماع الأجزاء التي تتكرر فيها الأحاديث، فيذهب العمر وما حصلوا فهم شيء، فإذا بلغوا سناً طلبوا جواز فتوى، أو قراءة جزءٍ من القرآن، فعادوا القهقرى، يحفظون بعد كِبَرِ السنِّ فلا يحصل مقصودُهم.

فالحفظ في الصِّبا للمهمِّ من العلم أصلٌ عظيم، وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسموعات وكتابة الأجزاء، ورأى الحفظ صعباً، فمال إلى الأسهل، فمضى عُمرُه في ذلك، فلما احتاج إلى نفسه قعد يحفظ على

---

(١) «يرشى»: المراد: أن يرغب بما يرغب أمثاله به، ليقبل على المراد منه.

كِبَرٍ، فلم يحصل مقصودُه؛ فاليقظة لفهم ما ذكرت، وانظر في الإخلاص، فما ينفع شيءٌ دونه[1].



- ٢ -
آداب معاشرة الزوجة

ينبغي للعاقل أن يتخيَّر امرأةً صالحة من بيتٍ صالح، يغلِب عليه الفقر؛ لترى ما يأتيها به كثيراً.

وليتزوجْ مِنْ مقاربةٍ في السِّنّ. فأمَّا الشيخ فإنَّه إذا تزوج صبية آذاها، وربَّما فَجَرتْ، أو قتلته، أو طلبت الطلاق وهو يحبُّها، فيتأذَّى.

وليتمِّمْ نقصه بحسن الأخلاق، وكثرة النفقة.

ولا ينبغي للمرأة أن تَقْرَبَ من زوجها كثيراً، فتملَّ، ولا تبعدَ عنه، فينساها. ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة مستحسنة..

وإنما يُعجب الرَّجل بالمرأة؛ لأنَّه لم ير عيوبها.

وليكن للمرأة فراش، وله فراش، فلا يجتمعان إلا في حال الكمال.

ومن الناس من يستهين بهذه الأشياء، فيرى المرأة متبذلة[2]، تقول: هذا أبو أولادي، ويتبذَّل هو، فيرى كلٌّ واحدٍ من الآخر ما لا يشتهي، فينفر القلب، وتبقى المعاشرة بغير المحبة.

وهذا فصل ينبغي تأمُّله، والعمل به، فإنه أصلٌ عظيم[3].



(١) جاء هذا في الفصل (١٧٢).

(٢) «متبذلة»: التبذل: لبس الثوب الخلق، والمعنى: أنها لا تعتني بالتجمل لزوجها والتزين له.

(٣) جاء هذا في الفصل (٣٦٩).

- ٣ -

آداب التعامل بين الزوجين

يستحبُ للمرأة ألاً تبعد عن زوجها بعداً تنسيه إيَّاها، ولا تقرُب منه قرباً يملُّها، أو يظهرُ لديه مكنوناتُ عيوبها.

وينبغي له ألاً يطلع منها على عورة، وتجتهد في ألاً يشم منها إلا طيب ريح، إلى غير ذلك من الخصال التي تستعملها النساء الحكيمات؛ فإنهنَّ يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج إلى تعليم.

فأمَّا الجاهلات فإنهنَّ لا ينظرن في هذا، فيتعجَّل التفات الأزواج عنهنَّ.

فمن أراد نجابةَ الولد، وقضاء الوطر، فليتخير الزوجة، فلينظر إليها، فإذا وقعت في نفسه، فليتزوجْها، ولينظر في كيفية وقوعها في نفسه. فإنَّ علامة تعلُّق حبها بالقلب أنَّه لا يكاد يصرف الطَّرف عنها، فإذا انصرف الطَّرْفُ؛ قلق القلب بتقاضي النظرة؛ فهذا الغاية.

ودونه مراتبُ، على مقاديرها يكون بلوغ الأعراض.

ومن قَدَر عل مناطقة المرأة، أو مكالمتها بما يوجب التنبيه، ثم ليرى ذلك منها، فإنَّ الحُسْنَ في الفم والعينين.

وقد نصَّ أحمد ـ رحمه الله ـ على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التي يريد نكاحها ما هو عورة، يشير إلى ما يزيد على الوجه.

ومن أمكنه أن يؤخر العَقْد، لينظرَ كيف تَوَقان قلبه؛ فإنه لا يخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد، وتوقانها لأجل الحبِّ، فإذا رأى قَلَق الحبِّ أقدم.

ثم ينبغي للمتخير أن يتفرس في الأخلاق، فإنَّها من الخفي، وإن الصورة إذا خلت من المعنى كانت كخضراءِ الدمن.

فمن قدَر على امرأةٍ صالحة في الصورة والمعنى فليُغمِض عن

عوراتها[1]، ولتجتهد هي في مراضيه من غير قرب يُمِلّ، ولا بُعْدٍ يُنْسِي، ولتُقْدِمْ على التصنُّع[2] له؛ يحصل الغرضان منها: الولد، وقضاء الوطر ـ مع الاحتراز الذي أوصيت به ـ تدوم الصحبة، ويحصل الغَناء بها عن غيرها[3].



ـ ٤ ـ
مدّ النظر إلى الزوجة الثانية

أكثر شهوات الحسِّ النساءُ. وقد يرى الإنسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته، أو يتصوَّر بفكره المستحسنات، وفِكْرُهُ لا ينظر إلا إلى الحسن من المرأة، فيسعى في التزوج.

فإذا حصل له مراده لم يزل ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكَّر فيها فيملّ، ويطلب شيئاً آخر.

ولا يدري أنَّ حصول أغراضه في الظاهر ربما اشتمل على محن، منها أن تكون الثانية لا دين لها، أو لا عقل، أو لا محبَّة لها، أو لا تدبير، فيفوت أكثرُ مما حصل.

وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش؛ لأنَّهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها، فتلذُّ لهم تلك الساعة، ثم ينتقلون إلى أخرى.

فليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مرادٍ تامٍّ كما يريد: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وما عِيْبَ نساء الدنيا بأحسن من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

---

(١) «عوراتها»: عيوبها.

(٢) «التصنع»: التزين وتحسين المظهر والهندام.

(٣) جاء هذا في الفصل (٢٨).

وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة، وعيب الخلق معنى.

فليقنع بما باطنه الدِّين، وظاهره السِّتر، والقناعة، فإنه يعيش مرفَّه السِّرِّ، طيِّب القلب؛ ومتى استكثر؛ فإنما استكثر من شغل قلبه، ورقة دينه[1].



فليتَّق الله من عنده امرأة لا بأس بها، وليعرض عن حديث النفس ومناها، فما له منتهى[2].



والسعيد من إذا حصلت له امرأةٌ، فمال إليها، ومالت إليه، وعلم سترها ودينَها، أن يعقد الخنصر على صحبتها.

وأكثرُ أسباب دوام محبَّتها ألاَّ يُطلِق بصره؛ فمتى أطلق بصره، أو أطمع نفسه في غيرها، فإنَّ الطمع في الجديد ينغص الخُلق، ويُنقِص المخالطة، ويستر عيوب الخارج؛ فتميل النفس إلى المشاهد الغريب، ويتكدَّر العيش مع الحاضر القريب كما قال الشاعر:

والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبها ... في أعين الحور موقوفٌ على الخطرِ
يسرُّ مقلتَهُ ما ضرَّ مُهجَتَهُ ... لا مرحَباً بسرورٍ عادَ بالضررِ

ثم تصير الثانية كالأولى، وتطلب النَّفسُ ثالثة، وليس لهذا آخر.

بل بالغضّ عن المشتهيات، ويأس النفوس من طلب المستحسنات، يطيب العيش مع المعاشر.

ومن لم يقبل هذا النُّصح؛ تعثَّر في طرق الهوى، وهلك على البارد، وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل، أو في العار الحاضر.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢١٦).
(٢) جاء هذا في الفصل (٢٨٨).

فإنَّ كثيراً من المستحسنات لَسْنَ بصيِّنات، ولا يفي التمتُّع بهنَّ بالعار الحاصل، ومنهنَّ المبذِّرات في المال، ومنهنَّ المبغضة للزوج، وهو يحبها كعابد صنم.

وأبلهُ البُله الشيخ الذي يطلب صبيَّة.

ومجموع ما قد بسطته: حفظُ البصر عن الإطلاق، ويأسُ النفس عن التَّحصيل، قنوعاً بالحاصل خصوصاً من قد علت سنُّه[(١)].

❋ ❋ ❋

- ٥ -
اقتصاد الأسرة

من العجيب سلامة دين ذي العيال إذا ضاق به الكسب، فما مثلُه إلا كمثل الماء إذا ضُرِب في وجهه سِكْر، فإنه يعمل باطناً، ويبالغ حتى يفتح فتحة.

فكذلك صاحب العيال إذا ضاق به الأمر؛ لا يزال يحتال، فإذا لم يقدِرْ على الحلال ترخَّص في تناول الشُّبهات، فإنْ ضعُفَ دينُه مدَّ يده إلى الحرام.

فالمؤمن إذا علم ضعفه عن الكسب؛ اجتهد في التعفُّف عن النكاح، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد، والقناعة باليسير[(٢)].

❋ ❋ ❋

والعاقل يدبِّر بعقله عيشته في الدُّنيا، فإن كان فقيراً؛ اجتهد في كسبٍ وصناعة تكفُّه عن الذلِّ للخلق، وقلَّل العلائق، واستعمل القناعة، فعاش سليماً مِنْ مِنَن الناس، عزيزاً بينهم.

---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٣٦).

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٩٦).

وإن كان غنياً؛ فينبغي له أن يدبِّر في نفقته خوف أن يفتقر، فيحتاج إلى الذلِّ للخلق، ومن البليَّة أن يبذِّر في النفقة، ويباهي بها ليُكمِد الأعداء، كأنه يتعرَّض بذلك ـ إن أكثر ـ لإصابته بالعين، وينبغي التوسُّط في الأحوال.

وإنما التدبير حفظ المال، والتوسُّط في الإنفاق، وكتمان ما لا يصلُح إظهارُه، ومن الغلط إطلاع الزوجة على قَدْر المال، فإنه إن كان قليلاً؛ هان عندها الزوج، وإن كان كثيراً؛ طلبت زيادة الكسوة والحُلِيِّ[1].



فاللَّهَ اللَّهَ، يا مَن يريد حفظ دينه، قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك، وخفف العلائق مهما أمكنك، واحتفظ بدرهم يكون معك، فإنه دينك[2]، وافهم ما قد شرحته[3].



(١) جاء هذا في الفصل (٣٧٣).
(٢) أي فإنه سبب لحفظ دينك.
(٣) جاء هذا في الفصل (٢٩٦).



الفصل الرابع

في إصلاح المجتمع

تمهيد:

[تنطلق خواطر الإمام ابن الجوزي عن المجتمع من الزمن الذي عاش فيه، فهو يسجِّل مشاهداته وملحوظاته، واصفاً الحالة الاجتماعية تارةً، وناقداً تارةً أخرى، وموجِّهاً إلى الإصلاح تارةً ثالثة..

● وفي مسح شامل للمجتمع، يرى أن خراب الأرض أكثر من عمرانها. وأن السلطان مشغول بهوى نفسه، وجمهور جنوده في سكر الهوى، وأرباب البوادي غمرهم الجهل، والتجار غلب عليهم الحرص، والغش في المعاملات فاش، ومعظم النساء قليلات الدين، والمتعبدون على غير علم، وأكثر العلماء يتلاعب بهم الهوى.. إنها صورة قاتمة، ولكنه يردنا إلى اتباع السلف الذين كان حظهم من العلم وافراً، ومن حسن المعاملة كاملاً.

● وفي عملية شبه إحصائية، يقسم النساء إلى علماء وجهال. ثم يتحدث عن أصناف كل من الفريقين ودرجاتهم، ويعرج على النساء، ويصنفهن إلى فئات من حيث الدين والأخلاق.. ويخلص من هذا إلى تحديد المواصفات للمجالس التي يحسن بالإنسان أن يكون فيها، والمجالس التي ينبغي اجتنابها.

ووفقاً للتصنيف السابق، فإن نسبة الهمل في المجتمع ليست بالقليلة، ولذا فهو يتحدث عن حكمة وجودهم.

● وعلى الرغم من أن الإسلام قد أوجب النظافة في كل مرافق الحياة، فإن المسلمين ليسوا كذلك، ويتحدث عن الآثار السيئة الناتجة عن ذلك، والتي منها نفور المرأة من زوجها.

● والأصل في المجتمع المسلم أن يكون محكوماً بالشرع، ولكن الإمام يرى أنه في كثير من الأحيان يكون السائد بين الناس تقديم العمل بالعادات على العمل بالشرع، وبعد بيان الآثار المترتبة على ذلك يقول: والعادات ـ في الجملة ـ هي المهلكة.

● والفقراء عنصر أصيل دائم الوجود في تكوين المجتمعات. ولذا كان من الضروري الاتجاه إليهم بتوجيه النصح في كيفية التعامل مع الآخرين مع حفظ ماء الوجه وعدم مد اليد..

ونبَّه إلى أنه مما يزيد همَّ الفقير اختلاطه بالناس ورؤية المنعمين منهم، ولذلك فالعزلة له بعض العلاج.

● ولا تكون مكانة الفرد محفوظة في المجتمع إلا إذا كان في غنى عن الناس، ولا يكون ذلك إلا بوجود المال، ولهذا فإن الإمام يتجه بالنصح إلى الناس في إصلاح أموالهم وتنميتها، وضبط نفقاتهم فلا إسراف ولا تبذير ولا تقتير، وإضاعة المال منهي عنها.

● وإذا كان لا بد للمرء من مخالطة الناس، فليكن ذلك على أساس من المداراة، فلا يُعادي أحداً، ولا يسترسل مع الأصدقاء، فليس هناك من يصلح للصداقة، ولكن ليتخذهم معارف..

● ولا يكثر من مخالطة الناس إلا بقدر الحاجة، لأن هذه المخالطة تجعل القلب ينتقش فيه ما رأته العين، وينتقش في الضمير ما تسمعه الأذن.. والطبع يسرق من الطبع، وهذا ما يشتت القلب.. وفي ذلك من الخطر ما فيه.

وإذا كان لا بد من المخالطة، فينبغي أن تكون مع الأرفع والأعلى في العلم والعمل ليُستفاد منه، وأما مخالطة الدُّون، فإنها تؤذي، إلا أن يكون عامياً يقبل من معلمه، فينبغي أن يخالط بالاحتراز.

● وأما في كيفية اختيار من تعاشره، فإن الإمام يضع بين يديك المواصفات التي لا بد من توفرها:

منها: النظر إلى أصله، لأن الشيء يرجع إلى أصله.

ومنها: النظر إلى الصورة، فإنه متى صحت البنية فالغالب صحة الباطن.

ثم لا بد بعد ذلك، من التجربة قبل المخالطة والمعاشرة.

تلك بعض النقاط الرئيسة التي جاءت في خواطر الإمام فيما يتعلق بالمجتمع، وهناك تفريعات لا تقلُّ أهمية عنها، ولكن الوقوف عليها يخرج بهذا التقديم عن غايته].



- ١ -
مسح شامل للمجتمع

تأمَّلتُ الأرض ومَنْ عليها بعين فكري، فرأيت خرابَها أكثرَ مِنْ عُمرانِها.

ثم نظرتُ في المعمور منها، فوجدتُ الكفَّار مستولين على أكثره، ووجدتُ أهل الإسلام في الأرض قليلاً بالإضافة إلى الكفار.

ثم تأمَّلتُ المسلمين، فرأيت الأكساب قد شغلتْ جمهورهم عن الرزاق، وأعرضت بهم عن العلم الدالِّ عليه.

فالسلطان مشغولٌ بالأمر والنَّهي واللذَّات العارضة له، ومياه أغراضه جاريةٌ لا سَكْرَ لها، ولا يتلقاه أحد بموعظةٍ بل بالمِدْحَة التي تقوِّي هوى النفس.

وإنَّما ينبغي أن تقاوم الأمراض بأضدادها؛ كما قال عمر بن المهاجر: قال لي عمرُ بن عبدالعزيز: إذا رأتني قد حِدتُ عن الحق فخذ بثيابي وهزَّني، وقل: ما لك يا عمر[1]؟!.

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: رحم الله مَنْ أهدى إلينا عيوبنا.

فأحوجُ الخلق إلى النصائح والمواعظ السلطان.

وأما جنوده فجمهورهم في سُكْر الهوى، وزينة الدنيا، وقد انضاف إلى ذلك الجهلُ وعدم العلم، فلا يؤلمهم ذنب، ولا ينزعجون من لبس حرير، أو شرب خمر، حتى ربما قال بعضهم: إيش يعمل الجندي، أيلبس القطن؟ ثم أخذهم للأشياء من غير وجهها، فالظلم معهم كالطَّبع.

وأربابُ البوادي قد غمرهم الجهل، وكذلك أهلُ القرى؛ ما أكثر تقلُّبهم في الأنجاس، والتهوينُ لأمر الصَّلوات، ربما صلَّت المرأة منهنَّ قاعدة.

ثم نظرتُ في التُّجار، فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت؛ وصار الربا في معاملاتهم فاشياً، فلا يبالي أحدُهم من أين حصلت له الدنيا، وهم في باب الزكاة مفرطون، ولا يستوحشون مِنْ نُكْرِها إلا مَنْ عصم الله.

ثم نظرتُ في أرباب المعاش، فوجدتُ الغِشَّ في معاملاتهم عامّاً، والتطفيفَ والبَخْسَ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل.

ورأيت عامَّة من له ولدٌ يشغَله ببعض هذه الأشغال طلباً للكسب قبل أن يعرف ما يجبُ عليه وما يتأدَّب به.

ثم نظرتُ في النِّساء، فرأيتهنَّ قليلاتِ الدِّين، عظيماتِ الجهل، ما عندهنَّ من الآخرة خَبَرٌ إلا مَنْ عصم الله.

---

(١) حلية الأولياء (٥/٢٩٢).

فقلت: واعجباً فمن بقي لعبادة الله عزَّ وجلَّ ومعرفته؟.

فنظرتُ؛ فإذا العلماءُ، والمتعلمون، والعبادُ، والمتزهدون.

فتأمَّلتُ العبَّاد والمتزهدين؛ فرأيت جمهورهم يتعبَّدُ بغير علم، ويأنسَ إلى تعظيمه، وتقبيل يده، وكثرة أتباعه، حتى إنَّ أحدهم لو اضطر أن يشتريَ حاجةً من السُّوق لم يفعل؛ لئلا ينكسر جاهه، ثم ترتقي بهم رتبة الناموس إلى ألاَّ يعودوا مريضاً، ولا يشهدوا جنازةً، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم، ولا يتزاورون، بل ربما ضنَّ بعضهم على بعض بلقاء، فقد صارت النواميسُ كالأوثان، يعبدونها ولا يعلمون.

وفيهم من يُقْدِم على الفتوى بجهلٍ لئلا يختل ناموس التصدُّر.

ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيا، ولا يعلمون أنَّ المذموم من الدنيا ما هم فيه، لا تناولُ المباحات.

ثم تأمَّلتُ العلماء والمتعلمين؛ فرأيت القليل مِنَ المتعلمين من عليه أمارة النجابة، لأنَّ أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورُهم يطلب ما يُصيِّره شبكةً للكسب؛ إما ليأخذ قضاءَ مكان، أو ليصير قاضيَ بلد، أو قدراً يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

ثم تأمَّلتُ العلماء؛ فرأيت أكثرهم يتلاعبُ به الهوى، ويستخدمُه، فهو يؤثر ما يصدُّه العلم عنه، ويُقْبِل على ما ينهاه، ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه.

ولقد سَبَرْتُ السَّلف[1] كلَّهم فأردتُ أن أستخرج منهم مَنْ جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أرَ أكثر من ثلاثة:

أولهم: الحسنُ البصري.

وثانيهم سفيان الثوري.

---

(١) «سبرتُ السلف»: سَبَر القومَ: تأمَّلهم واحداً بعد واحد.

وثالثهم: أحمد بن حنبل.

وقد أفردتُ لأخبار كلِّ واحدٍ منهم كتاباً، وما أنكرُ على مَنْ ربَّعهم بسعيد بنِ المسيب.

وإن كان في السلف سادات، إلا أنَّ أكثرهم غلب عليه فن، فنقَص من الآخر، فمنهم من غلب عليه العلم، ومنهم من غلب عليه العمل.

وكلُّ هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة، ولا يؤيس مِنْ وجود من يحذو حذوَهم، وإن كان الفضل بالسَّبق لهم. فقد أطْلَع الله عزَّ وجلَّ الخَضِر على ما خفي عن موسى عليهما السلام. فخزائنُ الله مملوءة، وعطاؤه لا يقف على شخص[1].



- ٢ -
أصناف الناس في المجتمع

نظرتُ إلى الناس فرأيتُهم ينقسمون بين عالمٍ وجاهلٍ.

فأمَّا الجهال: فانقسموا:

فمنهم سلطان قد ربي في الجهل، ولبِس الحرير، وشرب الخمور، وظلم الناس، وله عمَّال على مثل حاله، فهؤلاء بمعزلٍ عن الخير بالجملة.

ومنهم تجَّار همَّتُهم الاكتسابُ، وجمعُ الأموال، وأكثرُهم لا يؤدِّي الزَّكاة، ولا يتحاشى من الربا، فهؤلاء في صور الناس.

ومنهم أربابُ معاشٍ، يطفِّفون المكيال، ويخْسِرون الميزان، ويبخَسون الناس، ويتعاملون بالرِّبا، وهم في الأسواق طولَ النَّهار، لا همَّة لهم إلا ما

---

(١) جاء هذا في الفصل (٣١).

هم فيه، فإذا جاء الليل وقعوا نياماً كالسُّكارى، فهمَّةُ أحدهم ما يأكل ويلتذُّ به، وليس عندهم من الصَّلاة خبر، فإنْ صلَّى أحدُهم نقرها، أو جمع بينهما، فهؤلاء في عِداد البهائم.

ومنهم من يطلب اللَّذات، ولا يساعده المعاش، فيخرج إلى قطع الطريق، وهؤلاء أحمقُ الجماعة، إذ لا عيش لهم؛ فإن التذُّوا لحظةً بأكلٍ، أو شربٍ، فحرَّكت الريح قصبة هربوا خوفاً من السُّلطان، وما أقلّ بقاءهم، ثم القتلُ والصَّلب مع إثم الآخرة.

ومنهم أرباب قرى قد عمَّهم الجهل، أكثرُهم لا يتحاشى من نجاسة، فهم في زُمْرَة البقر.

ورأيت النِّساء ينقسمن أيضاً، فمنهنَّ المستحسنةُ التي تبغي[1]، ومنهنَّ الخائنةُ لزوجها في ماله، ومنهنَّ مَنْ لا تصلِّي، ولا تعرف شيئاً من الدِّين؛ فهؤلاء حشوُ النار، فإذا سمعت موعظة فإنها كما مرَّت على حجر، وإذا قُرِىء عندهنَّ القرآنُ فكأنهنَّ يسمعْنَ السَّمر.

وأما العلماء: فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذي نية خبيثة، يقصد بالعلم المباهاة، لا العمل، ويميل إلى الفسق ظناً أن العلم يدفعُ عنه، وإنَّما هو حجَّةٌ عليه.

وأما المتوسطون، والمشهورون: فأكثرهم يغشى السلاطين، ويسكت عن إنكار المنكر، وقليلٌ مَنْ العلماء مَنْ تسلم له نيَّتُه، ويحسُن قصده.

فمَن أراد الله به خيراً رزقه حُسْنَ القصد في طلب العلم، فهو يحصله لينتفع به وينفع، ولا يبالي بعملٍ ممَّا لا يدلُّه عليه العلم، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدُّنيا في تحصيل الكثير، ويؤثِر العزلة، فليس مذكراً للآخرة مثلُها.

---

(١) «تبغي»: تظلم وتدل بجمالها.

وليس على العالم أضرُّ من الدُّخول على السلاطين، فإنه يحسِّن للعالِم الدُّنيا، ويهوِّن عليه المنكر، وربما أراد أن يُنْكِرَ، فلا يصحُّ له، فإن عُدِم القناعة، وغلبته نفسُه في طلب فضول الدُّنيا فسلِّمْ عليه[1]؛ لأنه يتعرَّض بأربابها.

وإنَّ الإنسان ليمشي في السوق ساعةً، فينسى بما يرى ما يعلم.

فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك التردُّدُ إلى الأغنياء، والطَّمع في أموالهم.

فأمَّا الوحدة: فإنَّها سببُ رجوع القلب، وجمع الهمِّ، والنظر في العواقب، والتهيُّؤ للرَّحيل، وتحصيل الزاد؛ فإذا انضمَّتْ إليها القناعةُ جلبت الأحوال المستحسنة.

ولا تُحسِنُ اليوم المجالسة إلا لكتابٍ يحدِّثك عن أسرار السَّلف.

فأمَّا مجالسةُ العلماء فمخاطرة، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في الأغلب.

ومجالسة العوام فتنةٌ للدِّين، إلا أن يحترز مجالسهم، ويمنعهم من القول، فيقول هو، ويكلفهم السَّماع، ثم يستوفز[2] للبعد عنهم.

ولا يمكن الانقطاع الكلِّي إلا بقطع الطَّمع، ولا ينقطع الطَّمع إلا بالقناعة باليسير، أو يتميز بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغلُّه.

فإنَّه متى احتاج تشتَّت الهمُّ، ومتى انقطع العالِمُ عن الخَلْق، وقطع طمعَه فيهم، وتوفَّر على ذكر الآخرة؛ فذاك الذي ينفع، ويُنتفَع به. والله الموفق[3].



(١) «فسلم عليه»: أي انتهى أمره.
(٢) «يستوفز» استوفز: تهيأ للوثوب أو المضي.
(٣) جاء هذا في الفصل (٢٥١).

- ٣ -
الحياة الاجتماعية والنظافة

تلمَّحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم، فمنهم مَنْ لا ينظِّف فمه بالخِلال[١] بعد الأكل، ومنهم مَنْ لا يُنَقِّي يديه في غسلها من الزَّهَم[٢]، ومنهم مَنْ لا يكاد يَستاك، وفيهم مَن لا يكتحِل، وفيهم من لا يراعي الإبط إلى غير ذلك؛ فيعود هذا الإهمال بالخلل في الدِّين والدُّنيا.

أما الدِّين: فإنه قد أمرَ المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثُّوم، وأمر الشَّرعُ بتنقية البراجم[٣]، وقصِّ الأظفار، والسِّواك، والاستحداد، وغير ذلك من الآداب، فإذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع. وربَّما تعدَّى بعضُ ذلك إلى فساد العبادة، مثل أن يُهمِل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل.

وأما الدُّنيا: فإني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدمون إلى السِّرار[٤]؛ والغفلة التي أوجبت إهمالهم أنفسهم؛ أوجبتْ جهلهم بالأذى الحادث عنهم؛ فإذا أخذوا في مناجاة السِّرِّ؛ لم يمكن أن أصدِف[٥] عنهم، لأنهم يقصدون السِّرِّ؛ فألقى الشدائد من ريح أفواههم، ولعلَّ أكثرهم من وقت انتباهم ما أمرَّ أُصْبعه على أسنانه.

ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة، وقد لا تستحسنُ ذكرَ ذلك للرجل، فيثمرُ ذلك التفاتَها عنه، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إني لأحبُّ أن أتزين للمرأة كما أحبُّ أن تتزيَّن لي.

---

(١) «الخِلال»: هو: العود تُخلَّل به الأسنان.
(٢) «الزهم»: رائحة الدسم والشحم.
(٣) «البراجم»: مفاصل الأصابع.
(٤) «السرار»: المناجاة بالسر، وإخفاء الحديث.
(٥) «أصدف»: أعرض.

وفي الناس من يقول: هذا تصنُّع! وليس بشيء؛ فإنَّ الله تعالى زيَّننا لما خلقنا؛ لأنَّ للعين حظاً في النَّظر، ومن تأمَّل أهداب العين، والحاجبين، وحسنَ ترتيب الخِلْقَة، علم أن الله تعالى زيَّن الآدمي[1].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ أنظفَ الناس، وأطيبَ الناس، وكان لا يفارقه السِّواك، وكان يكره أن يُشَمَّ منه ريح ليست طيبة.

وقد قالت الحكماء: مَنْ نظف ثوبه قلَّ همُّه، ومن طاب ريحه زاد عقلُه.

وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «**ما لكم تدخلون عليّ قُلْحاً. استاكوا**»[2]، وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك[3].

فالمتنظف ينعِّم نفسه، ويرفع من قدرها، ثم إنه يقرب من قلوب الخلق، وتحبُّه النفوس لنظافته وطيبه.

وقد كان النبي ﷺ يحبُّ الطيب.

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال، فإنَّ النساء شقائق الرجال، فكما أنه يكره الشيء منها، فكذلك هي تكرهه، وربما صبَر هو على ما يكره، وهي لا تصبر.

وقد رأيت جماعة يزعمون أنَّهم زهَّاد، وهم من أقذر الناس، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم.

ومن تأمَّل خصائص الرسول ﷺ رأى كاملاً في العلم والعمل، فبه يكون الاقتداء، وهو الحجة على الخلق[4].



---

(١) قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].
(٢) رواه أحمد (٢١٤/١).
(٣) رواه أحمد (٢٧٢/٦).
(٤) جاء هذا في الفصل (٥٢).

- ٤ -
سيطرة العادات على الناس

رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشَّرع، فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة، لا لنهي الشَّرع!.

فكم مِنْ رجلٍ يوصف بالخير يبيع، ويشتري، فإذا حصلت له القُراضة[1] باعها بالصحيح من غير تقليدٍ لإمام، أو عملٍ برخصة، عادة من القوم، واستثقالاً للاستفتاء.

ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب[2]، ويتوانون عن الفرائض.

وكثيراً من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس، ثم يتصدَّقون على الفقراء، وربما توانوا عن إخراج الزكاة، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها، ثم إذا حضر أحدُهم مجلسَ وعظٍ بكى، كأنه يصانع بتلك الحال.

ومنهم: من يُخرج بعض الزكاة مصانعةً.

ومنهم: من يعلم أنَّ أصل ماله حرام، ويصعُب عليه فراقه للعادة.

وفيهم: من يحلِف بالطَّلاق، ويحنث، ويرى الفراق صعباً، فربَّما تأول، وربما تكاسل عن التأويل اتكالاً على عفو الله تعالى، ووعداً من النفس بالتوبة.

ومنهم: من يرى أنَّ استعمال الشَّرع ربما كان سبباً في تضييق معاشه، وقد ألِفَ التفسُّح[3]، فلا يسهُل عليه فراقُ ما قد ألِف.

والعادات في الجملة هي المُهلكة.

---

(١) «القراضة»: ما سقط بالقَرْض، أي: باع الدراهم المكسَّرة بالصحيحة مع عدم التساوي.

(٢) تُصلى في أول ليلة جمعة من شهر رجب. والأحاديث المروية في فضلها كذب وباطل.

(٣) «التفسح»: هو: طلب الفُسْحة والتنزه من عملٍ ليستريح.

ولقد حضر عندي رجلٌ شيخٌ ابن ثمانين سنة، فاشتريت منه دكاناً، وعَقَدْتُ معه العَقْدَ، فلما افترقنا غدر بعد أيام، فطلبت منه الحضور عند الحاكم، فأبى، فأحضرتُه، فحلف باليمين الغموس[1] أنَّه ما بعته، فقلت: ما تدور عليه السَّنَةُ، وأخذ يُبرطِل[2] لمن يحول بيني وبينه من الظلمة.

فرأيت من العوامِّ من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول فقيه، ويقول هذا ما قبض الثَّمن، فكيف يصح البيع؟ وآخر يقول: كيف يجوز لك أن تأخذ دكانه بغير رضاه؟ وآخر يقول: يجب عليك أن تقيله البيع.

فلما لم أقِلْه أخذ هو وأقاربُه يأخذون عِرضي، ورأى: أنه يحامي عن ملكه، ثم سعى بي إلى السلطان سعايةً يُحرِّض فيها من الكذب ما أدهشني، ويبرطلُ مالاً لخلق من الظلمة، فبالغوا، وسعوا، إلا أن الله تعالى نجاني مِنْ شرِّهم.

ثم إني أقمتُ عليه البيِّنة عند الحاكم، فقال بعضُ أرباب الدُّنيا للحاكم: لا تحكم له، فوقف عن الحكم بعد ثبوت البيِّنة عنده، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه مَنْ ترك إنفاذَ الحقِّ حفظاً لرئاستهم ما هَوَّن عندي ما فعله ذلك الشيخ حفظاً لماله؛ لجهله، وعلم هؤلاء.

فتجلَّى لي من الأمر: أن العاداتِ غلبت على الناس، وأنَّ الشرع أُعرِض عنه، وإن وقعت موافقة للشَّرع فكما اتفق، أو لأجل العادة.

فإنَّ الإنسان لو ضُرِبَ بالسِّياط ما أفطر في رمضان عادةً قد استمرت، ويأخذ أعراضَ النَّاس وأموالَهم عادةً.

فكم قد رأيت هذا الشيخ يُصلِّي ويحافظ على الصَّلاة، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانباً.

---

(١) هي اليمين الكاذبة التي يتعمدها صاحبها، وهي التي تغمس صاحبها في النار.

(٢) «يبرطل»: يرشي، والبرطيل: الرشوة.

وكم قد رأيت أولئك الحكَّام يتعبَّدون، ويطلبون العلم؛ غير أنَّهم لما خافوا على رئاستهم أن تزول تركوا جانب الدِّين.

ثم إن الله تعالى نصرني عليه، وتقدَّم إليَّ الحاكم بإنفاذ ما ثبت عنده، ودارت السُّنةُ، فمات الشيخ على قُلٍّ[1]. فنسأله عزَّ وجلَّ التوفيق للانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا[2]!.



- ٥ -
نصائح اجتماعية للفقراء

هيهات أن يجتمع الهَمُّ[3] مع التلبُّس بأمور الدنيا! خصوصاً بالشابِّ الفقير الذي قد ألف الفقر؛ فإنه إذا تزوج وليس له شيء من الدنيا اهتمَّ بالكسب، أو بالطلب من الناس، فتشتَّتَ همُّه، وجاءه الأولاد، فزاد الأمرُ عليه، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبَّس بالحرام، إنه أسير ضرورات لا يجدها، فهمَّتُه ما يأكل وما يأكله أهله، وما ترضى به الزوجة من النفقة والكسوة، وليس له ذلك. فأي قلبٍ يحضر له؟ وأيُّ همٍّ يجتمع؟ هيهات!.

والله لا يجتمع الهَمُّ والعين تنظر إلى الناس، والسَّمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بدَّ منه.

فإن قال قائل: فكيف أصنع؟.

قلت: إن وجدت ما يكفيك من الدُّنيا، أو معيشةً تكفك فاقنعْ بها، وانفردْ في خلوةٍ عن الخلق مهما قدَرْتَ، وإن تزوَّجت فبفقيرة تقنعُ باليسير،

(١) «قلّ»: قليل».
(٢) جاء هذا في الفصل (١٦٦).
(٣) «يجتمع الهم»: كناية عن الراحة، أما تفرق الهم فهو دليل التعب.

وتصبرُ أنت على صورتها، وفقرها، ولا تتركْ نفسَك تطمح إلى مَنْ تحتاج إلى فضل نفقة.

فإن رُزِقْتَ امرأةً صالحةً؛ جمعت همَّك فذاك، وإن لم تقدر فمعالجةُ الصَّبر أصلحُ لك من المخاطرة.

وإيَّاك والمستحسنات، فإنَّ صاحبهنَّ إذا سلم كعابد صنم، وإذا حصل بيدك شيء فأنفق بعضَه، فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك.

واحذرْ كلَّ الحذَر من هذا الزمان وأهله، فما بقي مواس ولا مؤثر، ولا مَنْ يهتمُّ لسدِّ خَلَّة[1]، ولا مَنْ لو سُئِل أعطى، إلا أن يعطي نزراً بتضجُّر، ومنة، يستعبده بها المعطي بقية العُمْر، ويستثقله كلما رآه، ويستدعي خدمته له، والتردُّدُ إليه.

وإنما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيد[2] سمع أبا عثمان الحيري[3] يقول يوماً على المنبر: عليَّ ألفُ دينار، وقد ضاق صدري!.

فمضى أبو عمرو إليه في الليل بألف دينار، وقال: اقضِ دينك.

فلما عاد وصعِد المنبر قال: نشكر الله لأبي عمرو، فإنه أراح قلبي، وقضى ديني.

فقام أبو عمرو، فقال: أيُّها الشيخ ذلك المال كان لوالدتي، وقد شقَّ عليها ما فعلت، فإنْ رأيت أن تتقدم برده فافعل.

فلما كان في الليل عاد إليه، وقال له: لماذا شهرتني بين الناس، فأنا ما فعلت ذلك لأجل الخلق، فخذه، ولا تذكرني:

---

(١) «خلة»: حاجة.

(٢) هو: إسماعيل بن نجيد: زاهد، عابد، له جزء في الحديث. كان شيخ الصوفية في نيسابور. توفي سنة (٣٦٦هـ). الأعلام (١/٣٢٨).

(٣) هو: سعيد بن إسماعيل: إمام، مُحدِّث، واعظ. كان مجاب الدَّعوة، ومجمع العُبَّاد والزُّهَّاد. توفي سنة (٢٩٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٤/٦٢).

ماتوا وغيِّبَ في الترابِ شخوصُهم   والنشرُ[1] مسكٌ والعظامُ رميمُ

فالبعدَ البعدَ عمَّن همَّتُه الدنيا، فلا تكاد ترى إلا عدواً في الباطن، صديقاً في الظاهر، شامتاً بباطنه، حسوداً على نعمته.

فاشتر العزلة بما بيعت، فإنَّ من له قلب إذا مشى في الأسواق وعاد منزله؛ تغير قلبه.

فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدُّنيا، واجتهد في جمع الهمِّ بالبعد عن الخلق، ليخلو القلب بالتفكُّر في المآب، وتتلمح عينُ البصيرة خِيَمَ الرَّحيل[2].



- ٦ -
إصلاح المال

اجتهاد العاقل فيما يُصلِحُه لازمٌ له بمقتضى العقل والشَّرع، فمن ذلك حفظُ ماله، وطلبُ تنميته، والرغبةُ في زيادته، لأنه سبب بقاء الإنسان ماله، فقد نُهِي عن التبذير فيه، فقيل له: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، فاعلم أنه سبب لبقائه ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أي: قواماً لمعاشكم.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

---

(١) «النشر»: الرائحة الطيبة.

(٢) جاء هذا في الفصل (٢٦٤).

ومن فضيلة المال أن الله تعالىٰ قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وجُعِل المالُ نعمةً، وزكاتُه تطهيراً؛ فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ﷺ: **«نعم المالُ الصَّالح للرَّجل الصَّالح»**[1].

وقال: ما نفعني مال كمال أبي بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى التجارة، ويترك رسول الله ﷺ فلا ينهاه عن ذلك.

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: لأن أموت بين شُعْبتيْ جبلٍ أطلبُ كَفاف وجهي أحبُّ إليّ من أن أموت غازياً في سبيل الله.

وكان جماعةٌ من الصحابة رضي الله عنهم يتَّجرون، ومن سادات التابعين سعيدُ بن المسيب؛ فمات وخلَّف مالاً، وما زال السَّلف على هذا.

ثم قد تعرض نوائبُ كالمرض يحتاج فيها إلى شيء من المال، فلا يجد الإنسانُ بدّاً من الاحتيال في طِلْبَته، فيبذُل عِرْضَه أو دينه.

ثمَّ للنفس قوةٌ بدنيَّة عند وجود المال، وهو معدودٌ عند الأطباء من الأدوية، وتلك حكمةٌ وضعها الواضع.

وإنما تبع أقوامٌ طريق الرَّاحة، فادَّعوا أنهم متوكلة، وقالوا: نحن لا نمسِك شيئاً، ولا نتزوَّد لسفر، ورزقُ الأبدان يأتي.

وهذا على مضادَّة الشرع؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن إضاعة المال[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٩٧/٤).

(٢) جاء هذا في الفصل (١٠١).

- ٧ -
العيش مع الناس بالمداراة

من أعظم الغلط الثقةُ بالناس، والاسترسال إلى الأصدقاء.

فإن أشدَّ الأعداء وأكثرهم أذى الصديقُ المنقلب عدواً، لأنه قد اطَّلع على خفيِّ السِّرِّ؛ قال الشاعر:

احـــذرْ عـــدوَّك مـــرَّة   واحـــذرْ صـديـقَـك ألـفَ مـرَّة
فـلـربَّـمـا انـقـلـبَ الـصَّـديـ   ـقُ فـكـان أدرى بـالـمـضـرَّة

واعلم أن من الأمر الموضوع في النفوس الحسدُ على النِّعم، أو الغبطة وحبُّ الرفعة، فإذا رآك من يعتقدك مثلاً له، وقد ارتقيت عليه؛ فلا بدَّ أن يتأثَّر، وربما حسد.

فإنَّ إخوة يوسف عليهم السلام من هذا الجنس ما جرى لهم.

فإن قلت: كيف يبقى الإنسان بلا صديق؟.

قلت لك: أتراك ما تعلم أن المجانس يحسُد، وأنَّ أكثر العوامِّ يعتقدون في العالِم أنَّه لا يبتسمُ ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئاً، فإذا رأوا بعض انبساطه في المباح هبط من أعينهم.

فإذا كانت هذه حالةُ العوام، وتلك حالةُ الخواصِّ، فمع مَنْ تكون المعاشرة؟.

لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس؛ لأنها متلونة!.

وليس إلا المداراةُ للخلق، والاحترازُ منهم، واتخاذُ المعارف من غير طمع في صديق صادق، فإنْ ندر فليكنْ غيرَ مماثل، لأن الحسد إليه أسبق، وليكن مرتفعاً عن رتبة العوام، غيرَ طامع في نيل مقامك.

وإن كانت معاشرة هذا لا تشفي؛ لأنَّ المعاشرة ينبغي أن تكون بين

العلماء للمجانس؛ فلزمهم من الإشارات في المخالطة ما تطيب به المجالسة، ولكن لا سبيل إلى الوِصال.

ومثل هذه الحال: أنَّك إن استخدمت الأذكياء عرفوا باطنك، وإن استخدمت البُلْه انعكست مقاصدك.

فاجعل الأذكياء لحوائجك الخارجة، والبُله لحوائجك في منزلك لئلا يعلموا أسرارك.

واقنع من الأصدقاء بمن وصفتُه لك، ثم لا تلْقَه إلا متدرعاً دِرْعَ الحَذَر، ولا تُطْلِعه على باطنٍ يمكن أن يُسْتَر عنه، وكن كما يقال عن الذئب:

ينامُ بإحدى مقلتيه ويتَّقي بأخـ ـرى الأعادي فهو يقظانُ هاجعُ[1]



ومما أفادتني تجارِبُ الزَّمان: أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يظاهر بالعداوة أحداً مهما استطاع، فإنَّه ربما يحتاج إليه مهما كانت منزلته. وإنَّ الإنسان قد لا يظنُّ الحاجة إليه يوماً ما كما قد يحتاج إلى عويدٍ منبوذٍ لا يلتفت إليه.

وكم من محتقر احتيج إليه، وإن لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخص في جلب نفع وقعت الحاجة في دفع ضرّ.

ولقد احتجتُ في عمري إلى ملاطفة أقوامٍ ما خطر لي قطُّ وقوعُ الحاجة إلى التلطُّف بهم.

واعلم: أنَّ المظاهرة بالعداوة قد تجلبُ أذىً من حيث لا يعلم؛ لأنَّ المظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً، وقد يلوح مضرب خفي، وإن اجتهد المتدرِّع في ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو.

فينبغي لمن عاش في الدُّنيا أن يجتهد في ألاَّ يظاهر بالعداوة أحداً لما

---

(١) جاء هذا في الفصل (١١٢).

بيَّنتُ من وقوع احتياج الخلق بعضِهم إلى بعضٍ، وإقدار بعضهم على ضرر بعض، وهذا فصلٌ مفيد تبين فائدته للإنسان مع تقلُّب الزَّمان[1].



- ٨ -
من نكد الحياة الاجتماعية

من الابتلاء العظيم إقامةُ الرَّجل في غير مقامه، مثل أن يحوج الرَّجل الصَّالحُ إلى مداراة الظالم، والتردُّد إليه، وإلى مخالطة مَنْ لا يصلُح، وإلى أعمال لا تليق به، أو إلى أمورٍ تقطع عليه مراده الذي يؤثره.

مثل أن يقال للعالم: تردَّد إلى الأمير وإلا خفنا عليك سطوته، فيتردَّد فيرى ما لا يصلُح، ولا يمكنه أن ينكر، أو يحتاج إلى شيءٍ من الدُّنيا وقد منع حقَّه، فيحتاج أن يُعَرِّض بذكر ذلك، أو يصرِّح لينالَ بعضَ حقِّه، ويحتاج إلى مداراة مَنْ تصعُب مداراتُه، بل يتشتَّت همُّه لتلك الضرورات.

وكذلك يفتقر إلى الدُّخول في أمور لا تليق به، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيترددَ إلى السُّوق، أو يخدم من يعطيه أجرته.

وهذالا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من الأكدار.

أو يكون له عائلة وهو فقير، فيتفكر في إغنائهم، فيدخلُ في مداخلَ كلِّها عنده عظيمة.

وقد يُبتلى بفقد مَنْ يُحِبُّ، أو ببلاءٍ في بدنه، وبعكس أغراضه، وتسليط معاديه عليه، فيرى الفاسق يقهره، والظالم يذلُّه.

وكلُّ هذه الأشياء تكدر عليه العيش، وتكاد تزلزل القلب.

وليس في الابتلاء بقوة الأشياء إلا التسليم واللَّجأ إلى المقدِّر في

---

(١) جاء هذا في الفصل (١٥٧).

الفرج؛ فيُرى الرجلُ المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم، ولا يتغيَّر قلبه، ولا ينطق بالشكوى لسانُه.

أوَ ليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول: «**من يؤويني، من ينصرني**»[١]؟ ويفتقر إلى أن يدخل مكة في جوار كافر[٢]، ويُشقُّ السَّلا[٣] على ظهره[٤]، وتُقتل أصحابه، ويداري المؤلفة، ويشتدُّ جوعه، وهو ساكن لا يتغيَّر.

وما ذاك إلا لأنَّه علم أنَّ الدُّنيا دار ابتلاء، لينظر كيف تعملون، وممَّا يهوِّنُ هذه الأشياء علمُ العبد بالأجر، وأنَّ ذلك مراد الحقِّ[٥].



- ٩ -
محاذير مخالطة الناس

من أراد اجتماع همِّه وإصلاحَ قلبه، فليحذَرْ من مخالطة الناس في هذا الزمان.

فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكرُه، فصار الاجتماع على ما يضرُّ، وقد جرَّبتُ على نفسي مراراً أنْ أحصُرها في بيت العُزلة، فتجتمعَ هي، ويضاف إلى ذلك النظر في سِيَرِ السَّلف.

فأرى العزلةَ حميةً، والنظرَ في سير القوم دواء، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع.

فإذا فسحْتُ لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم؛ تشتَّت القلب المجتمع، ووقع الذهول عما كنت أراعيه، وانتقش في القلب ما قد رأته

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١) من حديث جابر.
(٢) وهو المطعم بن عدي.
(٣) «السلا»: جلدة فيها الولد من الناس والمواشي.
(٤) ذكر البخاري هذه القصة برقم (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود.
(٥) جاء هذا في الفصل (٢١١).

العين، وفي الضمير ما تسمعُه الأذن، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدُّنيا، وإذا جمهور المخالطين أربابُ غفلة، والطَّبع بمجالستهم يسرِق من طباعهم.

فإذا عُدْتُ أطلب القلب لم أجده، وأروم ذاك الحضور فأفقده، فيبقى في غمار ذلك اللقاء للناس أياماً حتى ما يسلو الهوى.

وما فائدة تعريض البِناء للنقض؟.

فإن دوام العزلة كالبناء، والنَّظرُ في سِيَرِ السَّلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطة؛ انتقض ما بُني في مدَّةٍ في لحظة، وصعُب التلافي، وضعُف القلب.

ومن له فهم يعرِف أمراض القلب وإعراضَه عن صاحبه وخروج طائره مِنْ قفصه.

ولا يُؤمن على هذا المريض أن يكون مرضُه هذا سببَ التَّلف، ولا على هذا الطائر المحصور ألاَّ يقع في الشبكة.

وسبب مرض القلب أنه كان محمياً عن التخليط مغذواً بالعلم وسِير السَّلف، فخلط؛ فلم يحتمل مزاجه، فوقع المرض. فالجدَّ الجدَّ! فإنما هي أيام، وما نرى مَنْ يلقى ولا من يؤخذ منه، ولا من تنفع مجالسته، إلا أن يكون نادراً ما أعرفه:

ما في الصحابِ أخو وجدٍ نطارِحُه ... حديثَ نجدٍ ولا خِلٌّ نُجَارِيهِ

فالزم خلوتك، وراع ما بقيت، وإذا قلقتِ النَّفس مشتاقةً إلى لقاء الخَلْق، فاعلم أنها بعدُ كدرة، فرضْها ليصير لقاؤهم عندهم مكروهاً، ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزَّحمة، كما أن الذي يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره، ولو أنَّها عشِقت طريق اليمن، لم تلتفت إلى الشام[1].



---

(١) جاء هذا في الفصل (٢٦١).

- ١٠ -
كيفية التعامل مع الناس

كان لنا أصدقاء وإخوان أعتدُّ بهم؛ فرأيت منهم من الجفاء، وتركِ شروط الصَّداقة والأخوة عجائبَ.

فأخذت أعتِب، ثم انتبهت لنفسي، فقلت: وما ينفع العتاب، فإنَّهم إنْ صلحوا؛ فللعتاب لا للصفا، فهمَمْتُ بمقاطعتهم، ثمَّ تفكرت، فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء في الظاهر، فقلت: لا تصلُح مقاطعتُهم، إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الأخوة إلى ديوان الصَّداقة الظاهرة، فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبَهم.

وجمهور الناس اليوم معارفُ، ويندُر فيهم صديق في الظاهر.

فأمَّا الأخوة والمصافاة؛ فذاك شيءٌ نُسِخَ، فلا يُطمَع فيه.

وما أرى الإنسان يصفو له إخوة من النسب ولا ولدُه، ولا زوجتُه؛ فدع الطَّمع في الصفا، وخذْ عن الكلِّ جانباً، وعاملهم معاملة الغرباء.

وإيَّاك أن تنخدع بمن يظهر لك الودَّ، فإنه مع الزمان يبين لك الحال فيما أظهره، وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك.

وقد قال الفضيل بن عياض: إذا أردت أن تصادق صديقاً؛ فأغضبه، فإن رأيته كما ينبغي؛ فصادقه، وهذا اليوم مخاطرة؛ لأنك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال.

والسبب في نسخ حكم الصَّفا: أنَّ السَّلف كانت همَّتُهم الآخرة وحدَها، فصفت نيَّاتُهم في الأخوة والمخالطة، فكانت دِيناً لا دَنياً[1].



(١) جاء هذا في الفصل (٢٨٧).

والعزلة عن الخلق سببُ طيب العيش، ولا بدَّ من مخالطةٍ بمقدار.

فدارِ العدوَّ واستمِلْه، فربَّما كادَك، فأهْلَكَك.

وأحسن إلى من أساء إليك، واستعِن على أمورك بالكِتْمان.

ولتكن الناس عندك معارف، فأمَّا أصدقاء؛ فلا؛ لأن أعزَّ الأشياء وجودُ صديق، لأنَّ الصديق ينبغي أن يكون في مرتبة مماثل.

فإن صادقته عاميّاً، لم تنتفع به لسوء أخلاقه، وقلَّة علمه، وأدبه.

وإن صادقت مماثلاً أو مقارباً؛ حسدك، وإذا كان لك يقظة تلمَّحت من أفعاله وأقواله ما يدلُّ على حسدك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وإذا أردت تأكيد ذلك؛ فضع عليه مَنْ يضعك عنده، فلا يخرج إليه بما في قلبه.

فإن أردت العيش فأبعدْ عن الحسود؛ لأنه يرى نعمتك، فربما أصابها بالعين.

فإن اضْطُرِرْتَ إلى مخالطته؛ فلا تفش إليه سِرَّك، ولا تشاوره، ولا يغرَّنك تملُّقه لك، ولا ما يظهره من الدِّين، والتعبُّد، فإنَّ الحسد يغلب الدِّين.

وقد عرَفت أنَّ قابيل أخرجه الحسد إلى القتل، وأنَّ إخوة يوسف باعوه بثمنٍ بخسٍ.

وكان أبو عامر الرَّاهب من المتعبدين العقلاء، وعبدالله بن أبي من الرؤساء؛ أخرجهما حسدُ رسول الله ﷺ إلى النِّفاق، وترك الصَّواب.

ولا ينبغي أن تطلبَ لحاسدك عقوبةً أكثر مما هو فيه، فإنَّه في أمرٍ عظيمٍ متصلٍ لا يرضيه إلا زوال نعمتِك، وكلَّما امتدت امتدَّ عذابه، فلا عيش له.

وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نُزِعَ الحسدُ، والغلُّ من صدورهم[١]، ولولا أنه نزع؛ تحاسدوا، وتنغَّص عيشُهم[٢].



(١) قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].
(٢) جاء هذا في الفصل (٣٤٥).

ومَنْ رزقه الله تعالى العلم، والنَّظر في سِيَر السَّلف، رأى أنَّ هذا العالم ظلمةٌ، وجمهورُ العالم على غير الجادة، والمخالطةُ لهم تضرُّ ولا تنفع.

فالعجبُ لمَنْ يترخّص في المخالطة، وهو يعلم أنَّ الطَّبع بصيرٌ يسرقُ من المخالطة.

وإنَّما ينبغي أن تقعَ المخالطةُ للأرفع والأعلى في العلم، والعمل؛ ليستفادَ منه.

فأمَّا مخالطة الدُّون: فإنها تؤذي، إلا أن يكون عامياً يقبل من معلمه، فينبغي أن يُخالَط بالاحتراز.

وفي هذا الزَّمان إن وقعت المخالطة للعوامّ فهم ظلمةٌ مستحكمة، فإذا ابتُلِيَ العالم بمخالطتهم فليشمِّر ثياب الحذَر، ولتكنْ مجالستُه إيَّاهم للتذكرة والتأديب فحسب.

وإن وقعت المخالطة للعلماء فأكثرُهم على غير الجادَّة.. مقصودُهم صورة العلم، لا العمل به؛ فلا تكادُ ترى مَنْ تذاكره أمرَ الآخرة، إنَّما شُغْلهم الغِيبةُ، وقصدُ الغلبة، واجتلابُ الدُّنيا، ثُمَّ فيهم من الحسد للنظراء ما لا يوصف.

وإن وقعت المخالطةُ للأمراء، فذاك تعرُّض لفساد الدِّين، لأنه إن تولَّى لهم ولاية دنيوية فالظُّلمُ من ضروراتها، لغلبة العادة عليهم، والإعراض عن الشَّرع. وإن كانت ولاية دينية كالقضاء، فإنَّهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها، ولو راجع لم يقبلوا، وأكثرُ القوم يخاف على منصبه، فيفعلُ ما أُمِرَ به، وإن لم يجبر، وربما رأيت في هذا الزَّمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاةً، أو شهوداً، ومقصودُهم الرفعة.

ثُمَّ أكثر الشُّهود يشهد على مَنْ لا يعرفُه، ويقول: إنه معروف، ويدري: أنَّه كذاب، وإنما عرَّف لأجل حبةٍ يُعطاها، وكم قد وقعت شهادةٌ على غير المشهود عليه، أو على مُكره.

وإنْ وقعت المخالطةُ للمتزهِّدين؛ فأكثرُهم على غير الجادَّة، وعلى خلاف العلم، قد جعلوا لأنفسهم نواميس، فلا يخرجون إلى سوق، ويظهرون التخشع الزائد، وكله نفاق، وفيهم من يلبس الصُّوف تحت ثيابه، وربما لوَّح بكمِّه ليُرى.

فمن رزقه الله سبحانه النظر في سِيَرِ السَّلف، ووفَّقه للاقتداء بهم أن يعتزل عن أكثر الخلق، ولا يخالطهم، فإنَّه مَنْ خالطهم؛ أوذي، ومن داری؛ لم يسلم من المداهنة، فالنَّصح اليوم مردود[1].



- ١١ -
كيف تختار من تعاشره

ينبغي للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه، ويعاشره، ويشاركه، ويصادقه، ويزوجه، أو يتزوج إليه.

ثم ينظر بعد ذلك في الصُّور، فإنَّ صلاحها دليلٌ على صلاح الباطن.

أما الأصول فإنَّ الشيء يرجع إلى أصله، وبعيدٌ مِمَّن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن.

وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت رديءٍ فقلَّ أن تكون صيِّنة، وكذلك أيضاً المخالط، والصديق، والمعاشر.

فإيَّاك أن تخالط إلا من له أصلٌ يخاف عليه الدَّنس، فالغالب السَّلامة، وإن وقع ذلك كان نادراً.

وقد قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لرجل: أشِرْ عليَّ فيمن أستعمل. فقال: أما أرباب الدين فلا يريدونك، وأما أرباب الدُّنيا فلا

(١) جاء هذا في الفصل (٢٤٨).

تُرِدْهم، ولكن عليك بالأشراف، فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلُح.

وقد روى أبو بكر الصُّولي، قال: حدثني الحسين بن يحيىٰ عن إسحاق قال: دعاني المعتصم يوماً، فأدخلني معه الحمَّام، ثم خرج، فخلا بي، وقال: يا أبا إسحاق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه، إن أخي المأمون اصطنع قوماً، فأنجبوا، واصطفيت أنا مثلهم فلم ينجبوا، قلت: ومن هم؟ قال: اصطنع طاهراً، وابنه، وإسحاق وآل سهل فقد رأيتَ كيف هم، واصطنعت أنا الأفشين فقد رأيت إلى ما آل أمره، وأشناش فلم أجده شيئاً، وكذلك إيتاخ، ووصيف.

قلت: يا أمير المؤمنين! ها هنا جوابٌ عليَّ أمان من الغضب. قال: لك ذاك. قلت: نظر أخوك إلى الأصول، فاستعملها، فأنجبت فروعها، واستعملت فروعاً لا أصول لها، فلم تنجب.

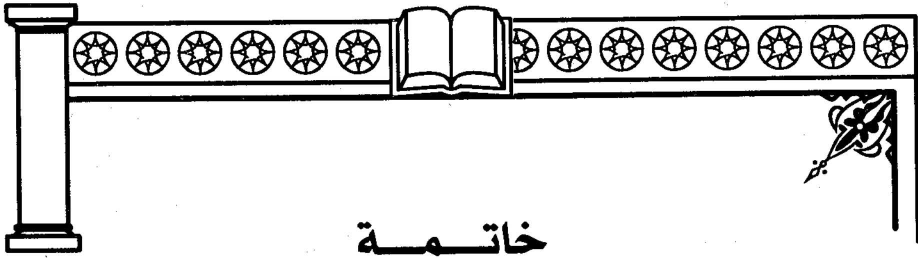
فقال: يا أبا إسحاق مقاساة ما مرّ بي طولَ هذه المدَّة أهونُ عليّ من هذا الجواب.

أما الصُّور، فإنه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحةُ الباطن، وحسنُ الخلق، ومتى كان فيها عيب فالعيب في الباطن أيضاً، فاحذر من به عاهة.

ثم مع معرفة أصول المخالط وكمال صورته لا بدَّ من التجربة قبل المخالطة، واستعمالُ الحذر لازم، وإن كان كما ينبغي[1].

* * *

(١) جاء هذا في الفصل (١٨٤).



خاتمة

تذكير بالمحطة الأخيرة

مَنْ علم قُرْبَ الرَّحيل عن مكة استكثر من الطَّواف، خصوصاً إنْ كان لا يؤمِّل العود لكِبَر سنِّه، وضعف قوَّته.

فكذلك ينبغي لمن قاربه ساحلِ الأجل بعلوِّ سنه أن يبادر اللحظات، وينتظر الهاجم بما يصلح له.

فقد كان في قوس الأجل منزعٌ زمان الشباب، واسترخى الوتر المشيب عن سِيَّة القوس؛ فانحدر إلى القلب، وضعفت القوى أن يوتر، وما بقي إلا الاستسلام لمحارب التَّلف.

فالبدارَ البدارَ إلى التنظيف ليكون القدوم على طهارة!.

وأيُّ عيشٍ في الدُّنيا يطيب لمن أيامه السليمة تغذُّ به إلى الهلاك، وصعود عمره نزولٌ عن الحياة، وطولُ بقائه نقص مدى المدة، فليتفكر فيما بين يديه، وهو أهمُّ مما ذكرناه[1].



ما أبله مَنْ لا يعلم متى يأتيه الموت، وهو لا يستعدُّ للقائه!.

(١) جاء هذا في الفصل (٢١٤).

وأشدُّ الناس بلهاً وتغفيلاً مَنْ قد عبر الستِّين، وقارب السبعين، فإنَّ ما بينهما هو معترك المنايا. ومن نازل المعترك استعدَّ، وهو غافل عن الاستعداد:

قال الشَّبابُ لعلَّنا في شيبنا ندع الذنوب فما يقول الأشيب

والله إنَّ الضَّحك من الشيخ ما له معنى، وإنَّ المُزاح منه باردُ المعنى، وإنَّ تعرُّضه للدنيا وقد دفعته عنها يضعف القُوى، ويضعف الرأي.

وهل بقي لابن ستين منزل، فإن طمع في السبعين فإنما يرتقي إليها بعناءٍ شديد؛ إن قام؛ دفع الأرض، وإن مشى؛ لهث، وإن قعد؛ تنفس، ويرى شهوات الدُنيا ولا يقدِر على تناولها، فإن أكل كدَّ[1] المعدة، وصعب الهضم، وإن وطىء آذى المرأة، ووقع دنفاً[2] لا يقدِر على ردِّ ما ذهب من القوة إلى مدةٍ طويلة، فهو يعيش عيش الأسير.

فإن طمع في الثمانين، فهو يزحف إليها زحف الصغير:

وعشر الثمانين من خاضها فإنَّ الملمَّات فيها فنون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان. فإنَّه فيما قيل:

قبل البلوغ صبيٌّ ليس على عمره عيار[3]، إلا أن يُرزق فِطنة، ففي بعض الصبيان فِطنةٌ تحثُّهم من الصِّغر على اكتساب المكارم والعلوم.

فإذا بلغ فليعلمْ أنَّه زمانُ المجاهدة للهوى، وتعلُّم العلم.

فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة.

فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامُه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق إلا الانحدارُ إلى الوطن:

---

(١) «كدَّ المعدة»: أتعبها.

(٢) «دنفاً»: مريضاً.

(٣) «عيار»: ما اتخذ أساساً للتقدير.

كأن الفتى يرقى من العُمر سلّماً إلى أن يجوزَ الأربعين وينحطّا

فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جلَّ همَّته التزودَ للآخرة، ويكون كلُّ تلمُّحه لما بين يديه، ويأخذَ في الاستعداد للرحيل.

وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين، إلا أن رجاء التدارك في حقِّ الصغير لا في حقِّ الكبير.

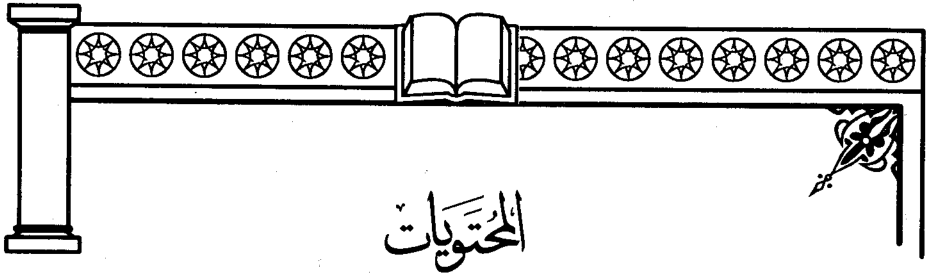
فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه في الأجل، وجاز من الزَّمن أخطره؛ فليُقبلْ بكلِّيته على جمع زاده، وتهيىء آلات السفر، وليعتقد أنَّ كلَّ يوم يحيا فيه لغنيمة ما هي في الحساب؛ خصوصاً إذا قوي عليه الضعف وزاد، وكلما علت سنه فينبغي أن يزيد اجتهادُه.

فإذا دخل في عَشْرِ الثمانين فليس إلا الوادع. وما بقي من العمر إلا أسفٌ على تفريط، أو تعبُّدٌ على ضعف.

نسأل الله عزَّ وجلَّ يقظة تامة تصرف عنا رقاد الغفلات، وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال! والله الموفق[١].

* * *

(١) جاء هذا في الفصل (١٨٩).


المحتويات

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

* * *

كتب لمعدّ الكتاب

في السنة المطهرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).

٤ ـ العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري.

في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).

٥ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٧ ـ هكذا فهم السلف.

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٩ ـ الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

١٠ ـ المهذب من الشفا، للقاضي عياض.

في الرقائق والأخلاق:

١ ـ مواعظ الصحابة.

٢ ـ المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).

٣ ـ تحقيق رسالة شرح المعرفة للمحاسبي.

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف، صدر منها (١٥) عدداً كان أولها مواعظ الإمام الحسن البصري.

موضوعات أخرى:

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.
٢ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.
٣ ـ الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).
٤ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).
٥ ـ دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:
- الظاهرة الجمالية في الإسلام.
- ميادين الجمال.
- التربية الجمالية في الإسلام.

٦ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

تحت الطبع:

- تحقيق مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض.



مشـــروع تقريب تراث
الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله

صدر منه عن المكتب الإسلامي:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.
٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.
٣ ـ سيرة خير العباد.
٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.
٥ ـ القضاء والقدر.
٦ ـ قل انظروا.
٧ ـ فضل العلم والعلماء.
٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
٩ ـ الهدي النبوي في العبادات.
١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

وصدر عن دار القلم بدمشق:

١١ ـ طب القلوب.
١٢ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء).

تحت الطبع:

١٣ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين.
١٤ ـ المهذب من مدارج السالكين.
١٥ ـ الروح.

